رواية

طلقة

سبقت لحظة الانتحار

سند فهد



طلقة سبقت لحظة الانتحار

بيانات رواية طلقة سبقت لحظة الانتحار:

- الرواية: طلقة سبقت لحظة الانتحار
- الكاتب: سند فهد السيد
- النوع: رواية
- مراجعة وتدقيق النص وتصدير الغلاف: رياض الحَمّادي
- لوحة الغلاف بالذكاء الاصطناعي: رياض الحَمّادي
- تنفيذ الغلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- سنة الإصدار: ٢٠٢٦
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، سبتمبر ٢٠٢٦
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٤٢٦ لسنة ٢٠٢٦.

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي)، الدورة الرابعة ٢٠٢٥، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب والكاتب وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، ما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلِف لأخذ إذن خطي.

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

(روايـــــــة)

طلقة سبقت لحظة الانتحار

سند فهد السيد

٢٠٢٦

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

إهداء

عندما كنا صـغارًا، كانت هناك طفلةٌ تهرب دائمًا من منزل والدها إلى منزل جيرانهم؛ لأنها كانت ضحيةً لقسوة والديها. كطفلٍ، عايشتُ الألم الذي يمكن أن تُخلّفه القسوة، وأدرك كيف يمكن لتلك الجروح أن تُشكّل حياتنا في الحاضر. أُهدي هذا العمل إلى كل الذين كبروا وهم يحملون صدماتٍ قديمة، وأتمنى أن يجدوا فيه ما يلامس وجعهم ويعكس واقعهم.

❊ ❊ ❊

"القسوة تورث مثل أي شيء نورثه لأبنائنا."

❊ ❊ ❊

١

مساوئ

كان اسمه مساوئ.

عاش مع جنات، المرأة الريفية التي لم ترَ منه وجهًا قط. كأن الحياة زفّته إليها ليلة واحدة، ثم مضى... واختفى.

في تلك الليلة، ليلة الزفاف، لم يكن هناك عرسٌ بالمعنى الحقيقي. فقط صمت طويل، وأهازيج نسائية تقليدية جاءت من أقصى الريف، تردد ألحان أيوب طارش القديمة، مع زفات لحجية تنشد الحناء والفرح، وكأنها تحاول إقناع المعازيم بأن شيئًا مقدسًا يحدث في الداخل. لكن العريس لم يكن هناك.

جنّات، بثوبها المطرّز يدويًا، تنتظر خلف ستارة خضراء من قماش ثقيل، تضع الكحل بأنامل مرتجفة، وتحاول أن تستوعب أن نصيبها قد أتى بهذه السرعة. لم تكن تعرف كيف ينبغي أن تتصرف كعروس، ولا ما إن كان الرجل الذي ستقضي معه باقي عمرها يضحك أو يعبس، كل ما كانت تعرفه أنه وصل صباحًا من عدن، سيتزوجها مساءً، وسيرحل فجأة كما جاء.

زفّوه إليها كأنهم يسلّمون أمانةً مجهولة، ملفوفةً بمباخر القرية، دون أن يقدّم لها أحدٌ شرحًا يليق بيقينٍ مصطنع... خالٍ من الصدق.

قالت أمها، بفخرٍ لا يخلو من التهديد:

"زوَّجتك على ابن خالك... ما تلقي مثله."

وراحت تتنقّل بين النساء، تتفاخر بابنتها وسط الحاضرات، وتردّد:

"العروسة نصيبها زَيّ القمر، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ولو بعد حين".

أما جنّات، فكانت تحدق إلى الخارج بعينين شاردتين، تنتظر أن يدخل والدها من مجلس الرجال. والدها، الرجل الهادئ، الذي كان يزن كلماته كما يزن الفلاح قطاف زرعه قبل المطر. كان يحب ابنته، لكنه لم يملك قرارها. فالسلطة كانت في يد الأم، كما هو الحال في كثير من بيوت الريف؛ تلك التي يُظن أنها ذكورية، بينما تحكمها نساء من خلف الستار.

لم يكن في قلب جنّات مساحة للاعتراض. الوقت كان ضيقًا، والخيارات أضيق. هي تعرف أن صوتها لن يُسمع، حتى وإن علا. لم تعترض، ولم تبكِ. فقط جلست كمن يعرف أن الحرب انتهت قبل أن تبدأ.

رغم صلة القرابة بينهما، إلا أنها لا تعرف شيئًا عن مساوئ. كان يعيش في عدن، أما هي فَنَشَأتْ في سفوح قعطبة، بين الطين والضباب ورائحة الحطب. لم يكن هناك زيارات بين العائلتين، فالعلاقة المقطوعة منذ عقود لم تعُد تربطها سوى المجاملات والمناسبات الكبرى.

جنّات لم تكن تعرف عن المدينة إلا ما تنقله حكايات النساء، من قصصٍ مشبعةٍ بالبهارات والفضول. كانت النساء في القرية ينظرن إلى عدن كما

ينظرن إلى فيلم غير مترجم، تشدّ أنظارهن مشاهده، لكن لا يفهمن لغته.
بالنسبة لهن، أن تتزوج ابنة القرية شابًا عدنيًا، فذلك أشبه بهبة إلهية، لا يسألن عن أصله أو نسبه، يكفي أن يكون "من هناك"، ليُصبح مرادًا وعلامة رفعة.
لكن في عرف القبائل، كان الأمر مختلفًا. فـــ "القبيلي" لا يزوّج ابنته إلا لقبيلي. كانت هذه قاعدة لا يُسقطها التاريخ بسهولة.
وحين عاد والد مساوئ إلى قريته بعد سنواتٍ من النفي، بدا وكأن الدهر ابتلع تلك القاعدة، أو على الأقل خفف من وطأتها.
كان والده قد غادر القبيلة في الأربعينيات، حين أصرّ على الزواج من امرأة عدنية بسيطة لا تنتمي لقبيلته. كان هذا كفرًا عشائريًا لا يُغتفر. تم نفيه، وقطعت عنه الصلة، ولم يعد يُذكر إلا كـــ "الخارج عن الصف"، الرجل الذي غلّب مصلحته على الحسب، ودفع الثمن.
لكن مع الألفية الجديدة، تغيرت الأحكام. بدأت المدنية تتسلل إلى القرى كالماء في الشقوق. وبين الصلح والتراضي، عاد الرجل، واستعاد شيئًا من ميراثه بين عمومه، على شرطٍ واحد: أن يزوّج ابنه من ابنة أخته، جنات، بنت رجلٍ حكيم... لكنه لم يكن الحاكم.

❊ ❊ ❊

٢

جنّات هي الإبنة الثانية بعد أختٍ كبرى خُطبت قبلها، وكان الجميع يتحدث عن أنها الأكثر حظًا، ليس لأنها أجمل، بل لأنها "ستسكن في عدن".

عدن... التي كانت في خيالها مدينة لها رائحة البحر، ووجوه لا تعرف القسوة، حيث المنازل تطلّ على الشوارع، لا على الجبال الصمّاء. لكنها لم تكن تعلم أن عدن التي ستعرفها... لا تشبه القصص. وأن الرجل الذي تنتظره خلف ستارة العرس... سيبقى وجهه غائبًا عنها، حتى وهي تحت سقفٍ واحد.

جاء مساوئ في الليل، بعد انتهاء الزفة، بخطى متعبة، متأخرة، وعيناه محمرّتان كمن خرج لتوّه من معركة. لم يبتسم، لم يعتذر، فقط خلع حذاءه، ووضع شاله بجوار السرير، ثم دخل الحمام.

كانت تلك أول ليلة بينهما؛ صامتة، جافة، كأنها اتفاقية هدنة، لا علاقة زواج.

ولم يكن بعدها ما يستحق الذكر. مرّت الأيام، وهو يغيب أكثر مما يحضر.

عند عودته، لم يكن يعود إلا ليصمت، أو لينام، أو يطلق تنهيدة تطرد من صدره كل ما تبقى من إنسانيته. أما جنات، فكانت تتعلم وحدها كيف تكون زوجة لرجل لا يظهر إلا كالغبار. لم تفهم ما يحب، أو ما يكره. كل ما عرفته عنه، أنه رجل يكافح. وأن المُكافح لا يُسأل كثيرًا. كانت تصحو فجأة على صوت حذائه في الممر، أو على صوت الباب وهو يُفتح بهدوء، كمن لا يريد

أن يُوقظ أحدًا، ولا أحد في الأصل ينتظر يقظته.

مرّت شـهور، لم تشـهد فيها من الزواج شـيئًا يُحكى. كانت تعدّ الوجبات، وتغسـل الثياب، وترتّب السـرير، لكن وجوده في المكان كان كصـوتٍ في الخلفية، لا يُفهم، ولا يُمكن تجاهله.

كانت كل مرة تسـمع فيها خطواته في الممر، تتمنى أن يسـألها عن يومها. أن يقول لها صباح الخير. لكنه كان يدخل الغرفة، يفتّش عن علبة سيجارته، ثم يخرج. حتى في أيام الإجازة، كان يجلس أمام التلفاز، لا يشـاهد شـيئًا، فقط يحدّق فيه كمن يبحث عن دليل إدانة.

كـان يعمـل حـارسًـا في شـركـة أمنيـة، يتنقّـل بين البنوك والمصـارف والمستوصفات الخاصة. يحمل سلاحًا لا يُبدد الخوف، ويراقب أبوابًا لا يطرقها أحد، لكنه كان يلتزم الصـمت كمن يخشـى أن يفقد آخر ما تبقّى له من معنى.

جنّات لم تكن تعرف طبيعة عمله، سـوى أنه يعود منه كجدارٍ مائل على نفسـه. رأته مرّة يدخل عند الفجر، ملابسـه مبلّلة، ورائحة الغبار تفوح من سترته.

وحين سألته برفق:

"أيش حصل معك؟"

أجاب دون أن يلتفت:

"ولا حاجة... مجرد مطر."

لكنها كانت تعرف.

تعرف أن المطر لا يُطفئ الحزن، بل يزيده بللًا.

كانت تراقبه وهو ينام بملامح مشدودة، وجهه كما هو، حتى في نومه، كأنه لا يُجيد الاسترخاء.

تحسّست ذات ليلة جبينه، فوجدته باردًا... كأن قلبه تجمّد منذ زمن.

وقبل الحرب، بدأ كل شيء يتآكل. الشركة التي كان يعمل فيها أغلقت أبوابها. وانقطع عنه الراتب، فصار يتسكّع بين معسكر وآخر، يحمل ملفًا باهت الحواف، يبحث عن فرصة جديدة، بلا توصية، ولا ظهر.

بدأ جسده يتغير، ووجهه يفقد إشراقه، وصوته يتكسر حين يتحدث، وكأن الكلمات نفسها تُرهقه. ومع كل يوم، صار يطيل الجلوس في الزاوية، لا يقرأ، لا يشاهد، لا يتحدث. عيناه تتنقلان في الفراغ، كأنما تبحثان عن شيءٍ مكسور في داخله... ولا تجدانه.

❊ ❊ ❊

٣

لم تُنكر جنّات... أنها أحبت مساوئ.

أحبته دون أن تفهمه. كان في عزلته ما يشبه السحر، وفي صمته ما يوقظ فيها الحنان. كانت تراقبه بصمت، تُحضّر له الشاي كما تحضّر دعاءً، وتغسل ملابسه كما تغسل عن قلبها الانتظار.

في الشهور الأولى، ظنت أن الحب مثل الزرع في قريتهم... يحتاج للصبر. وأن الرجل مثل التراب، لا تفوح رائحته إلا بعد المطر. لكن المطر تأخر.

حاولت أن تفهمه، لكن شخصيته كانت مثل الباب المغلق... بلا مفتاح. كلماته قليلة، وحركاته مقنّنة، وكأنه خُلق ليؤدي واجبًا ثم ينصرف. كانت كل مرة تحاول الاقتراب منه، تجده غارقًا في تفكير لا ينتمي لهذا البيت.

ثم بدأت تيأس.

شيئًا فشيئًا، صارت تكتفي بإعداد الطعام، وترتيب البيت، وغسل الفوضى التي يتركها خلفه. ربما أدركت أن هناك رجالًا لا يُحَبّون بالكلمات، ولا بالعناق، بل بالصبر، وفعل الواجبات فقط.

لكن حتى الصبر له حوافّ.

ومساوئ... كان سكينًا تمشي على تلك الحواف. في عينيه، كانت حربٌ لا تنتهي. وفي صدره، كانت فوضى لم يشاركها مع أحد. وجنّات... بقيت

هناك، تراقبه، تحاول أن تصنع من اللاشيء شيئًا... من الغياب حضورًا. لكن مساوئ... كان اسمًا لحالة أكثر مما كان اسمًا لرجل.

وكانت تلك الحالة تتمدد... وتبتلع كل شـيء. يرحل فجأة، يعود فجأة، كعسـكري بلا ظل. مهمات لا تنتهي حتى في المناسـبات، أعذار لا تُفهم، وخطوات لا تترك أثرًا. لكنها لم تعد تبالي. التعود صـار جزءًا من حياتها، مثل الملاعق في المطبخ، أو ظلّ الستائر حين تقتحم الشمس نوافذ البيت.

لم تعد تنتظر شـيئًا. فكل انتظار طويل، إذا طال أكثر من اللازم، يتحوّل إلى اعتياد. لكن ما ظل يؤرقها، كان كشـوكةٍ صـغيرة في الحذاء؛ لا تخرج، لكنها تؤلم. تلك الطفلة... التي جاءت إلى الدنيا دون أن يُمسـك والدُها بيد أمّها، أو يسمعَ بكاءَها الأول.

عائشة.

كأنها وُلدت بلا أب، كما وُلد هو من غياب الحب.

حين عادت به الأيام ذات مسـاء، بعد غربةٍ طويلة في السـعودية، كخروجٍ نهائي، كانت رمال "الوديعة" لا تزال عالقةً في حذائه، وعيناه تحملان غبار "العَبر"، وفي أذنيه طنين السـفر... كأن صـحراء الربع الخالي رفضـت أن تغادره، أو كأنه هو من لم يخرج منها تمامًا.

رأى الطفلة لأول مرة وهي في الثالثة. لا تعرفه، ولا تعرف كيف تنظر إليه، كما لا تعرف الأصـوات العالية، ولا لماذا تنام أمها مبكرًا كل يوم دون أن تحكي لها حكاية.

مســاوئ، الذي حلم يومًا بطفلٍ يُنســيه مرارة الطفولة المحروقة، خمدت فرحته حين قيل له:

"مبروك... زوجتك حامل ببنت."

تجهَّم.

لم يحتمل فكرة أن يكون طفله الأول أنثى. ليس لأنه يكره البنات، بل لأن والده أراد أحفادًا ذكورًا، يرفعون اسم العائلة، يحملون السلاح، ويتحلقون حوله كجنودٍ صغار. ذلك الوالد، الذي طالما ملأ البيت بنظراته الشرهة نحو النســاء، لكنه لم يعرف يومًا كيف يكون متعاطفًا، أو رحيمًا، أو حتى صــادقًا مع نفسه.

في لحظات صفاء نادرة، كان يسأل نفسه:

"لماذا أفكر هكذا؟"

"لماذا أشعر أن الأنوثة عَار؟"

"من أين جاء هذا التورم في رجولتي؟"

لكنه لم يجد إجابة.

القسوة كانت رداءه، والبرود درعه، والصمت وسادته.

حاول أن يكون أبًا.

حاول أن يتخيل نفســه وهو يحتضــن ابنته، كما كان يتخيلها قبل الولادة، تضحك في حضنه. لكنه كلما حاول، رأى طيف والده يقف على العتبة:

وجهٌ غليظ، يدٌ ثقيلة، وظهرٌ لا ينحني.

كان والده حائطًا من صــخر، لا أحد عبَرهُ ســالمًا. لا هو، ولا حتى أمه التي ماتت وهي تنتظر منه قُبلة. أما عائشــة... فكانت تبني جدارًا من الصــمت. كلما أرادت أن تقترب منه، ابتعدت أكثر. لم يعاملها والده كحفيدة، بل كعارٍ صغير، كأن ولادتها عقوبة لأمنية لم تتحقق.

كبرت، وهي تراقب أباها كما يطالع المرء جزيرة بعيدة... يعلم أنه لن يصــل إليها أبدًا، لكن لا يزال ينظر نحوها في كل صباح. كان قلبها مملوءًا، لكنها لا تملك لغة للكلام.

كانت تحفظ أسئلة كثيرة، تخبئها تحت وسادتها كل ليلة، وتنام على أمل أن تطرحها يومًا.

لطالما أرادت أن تسأله:

"ليش ما تحبني مثل باقي الآباء؟ ليش يا أبي؟"

لكنها لم تسأل.

كانت الغصة أثقل من الكلمات، والفراغ في صدرها أعمق من البوح.

كل ما فعلته أنها رسمت صورة:

هي ووالدها، يمسكان بأيدي بعض، يبتسمان.

وضعتها في طريق عينيه، كرسالة من طفولة تتوسل أن تُقرأ.

لكن عيناه...

عبرتا فوق الورقة كما تعبر شاحنة فوق وردة.

لم يتكلم، لم ينظر، لم يرد.

الأيام مرّت كعادتها؛ باردة كجدار.

وهو كما هو... يجلس وحده، يضيء سيجارته بصمت، ويطفئها كأنه يطفئ لسانه. وصورتها تنام في حضنها كل ليلة، تسأل:

"هل سيتغير أبي؟"

"هل سيحبني مثلما أحبّه؟"

كانت تحلم بكلمة، أو لمسة، أو حتى تنهيدة دافئة تُطمئنها أن هذا البيت لا يخلو تمامًا من الحياة.

لكنها كانت تعرف...

في هذا البيت، الحلم ممنوع.

مثل العاطفة... ممنوع الدخول.

ولا أحد يفتح الباب للبراءة.

❊ ❊ ❊

٤

في ليلة كئيبة، عاد مساوئ من الخدمة، منهكًا كأن الحرب ما زالت تحاصره من الداخل.

كانت شوارع عدن مضاءة بنور خافت.

الحواري تتنفس رائحة سَمَكِ (الْبَاغَةِ) حتى في أحلكِ اللحظاتِ، لكن تلك الليلة، امتزج البخور المتسلل من نوافذ البيوت برائحة دخانٍ غاضب، صاعد من إطاراتٍ تحترق.

برد الخليج كان قاسيًا. لسع الأجساد كسكينٍ مبلل بالصقيع، ذاك البرد الذي يعرفه أهل عدن جيدًا؛ برد صيرة في ليالي القمر، حين ترتعش الأجفان... وتصدر السيارات أنينًا من وقود مغشوش.

نَزل مساوئ من سيارة "حوض"، غمارتين، يسوقها صديقه القريب صقر، الذي بدا وكأن التعب خيطٌ مشدود حول عنقه، لا يفُكّه سوى النوم الذي لا يأتي. توقّف أمام جامع "أبان". كانت المنارة تضيء بخفوتٍ شاحبٍ كأنها تحتضر، ضوءٌ أصفر شبيه بلسعة نوب دوعن في الوادي.

خطوات مساوئ ارتطمت بأغطية البالوعات على طرف الرصيف، كأن المدينة نفسها تحاول ابتلاع آثار من يجرؤ على السير في عتمتها.

كان يحمل على كتفيه ثقلًا، ليس فقط من الحرب، بل من انهيار العملة، وجنون الأسعار، والخذلان المتكرر من الحياة.

ديونه المتراكمة كانت تسير بجانبه، مثل ظلال شواهد مقابر "القطيع"، الصامتة فوق تلة تطل على جامع "العيدروس"... شواهد شهدت ما لم يقله التاريخ، وما لم يطوه الإنجليز.

في زوايا سوق "السيلة" المُغبرة، كانت ذكريات الطفولة تتراءى له؛ يوم اشترت له أمه حلوى الطحينية، في صباحٍ صار الآن كحلم... لا يدري إن كان قد عاشه حقًا.

قطع مساوئ الشارع ببطء، بندقيته تتأرجح على كتفه، كأنها طفل صغير لا ينام إلا في حضن أمه. خطواته كانت ثقيلة، تتردّد فوق إسفلتٍ بارد، تفصله عن الداخل أمتار قليلة... وعن الداخل الآخر، عمرٌ بأكمله.

توقف لحظة، نظر إلى منارة المسجد التي تشعُّ إضاءة خافتة، كأنها ترقبه دون يقين، ثم سمع صوت الإمام قادمًا من المِحراب، مشدودًا كوتر بيد صياد:

"وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ."

شعر أن الآية خُطّت له، وحده، بلا شريك. هزّ رأسه ببطء، وحدّث نفسه وهو يبتسم بسخرية متعبة:

"هذا الإمام لن يتوقف عن النواح... حتى أنخل رأسه بحبة من بطن هذه البندقية."

نظر إلى البندقية، ثم إلى منارة المسجد، ثم ابتسم مجددًا، ابتسامة من يعرف أن التهديد مجرد فكرة... وأنه هو الآخر، ساهٍ... عن صلاته، وعن نفسه، وعن كل شيء.

لم يدخل المسجد، بل مرّ من فتحةٍ صغيرة بين سورٍ مهجور وجدار المسجد، فتحةٍ لا تتّسع لثلاثة رجال، لكنها تتّسع لمساوئ ولتاريخه. نزل ثلاث درجاتٍ، كمن ينزل إلى ماضيه، ودخل في شارعٍ خلفيٍّ تفوح منه رائحةُ أسيد البطاريات والقمامة المتعفّنة.

في سوق الطعام، مرّ من جانب محل "الشيباني للكهربائيات والبطاريات"، حيث اللمبة الوحيدة المعلقة ترمش كأنها تحتضر هي الأخرى. من عمق المحل، خرج الشيباني فجأة، رجلٌ خمسيني بوجهٍ جاد، عدسته اليمنى أكبر من اليسرى، والإطار فوق أنفه أعوج وكأنه لم يرمّم منذ اختراع النظارات الطبية.

مدّ الشيباني يده وأمسك بأسفل دقنه، وابتسم كما يبتسم المرابون:

"الله المستعان... هكذا يكون جزاء من يصبر؟ مروحة الشحن إلى اليوم ما سددت قيمتها! ومكنتنا؟ أسبوع... شهر... جزعت سنة ولا جبتها."

مساوئ ارتبك. لو استطاع أن يدور للخلف ويفلت، لفعل. لكنه الآن أمامه، كقدر لا مفرّ منه.

"وعد أخير يا عم شيبان... نهاية الأسبوع. بالكثير السبت الواجي."

نظر الشيباني إليه طويلاً، ثم تنهد، وتركه يمر.

مرّ مساوئ بعدها عبر سوق الطعام. الشارع بدا خاليًا من الحياة، المحلات فارغة، والهواء مُحمّل بروائح (الخل) من عربات البائعين، الممزوجة بعطر

العود المغشوش، من محلات العسل القريبة. كأن كل شيء في عدن هذه الأيام أصبح تقليدًا رخيصًا للحياة.

نظر يمينًا، شمالًا، يتمتم:

"أذكر أنّ هنا كانت صيدلية..."

لكن المكان بلا أسماء، بلا وجوه. البائعون غادروا، وكأن الشارع تحوّل فجأة إلى لوحة ممسوحة التفاصيل.

واصل طريقه. عبر من سوق الطويل إلى الفتحة التي تؤدي إلى سوق الكدر.

هناك، جلس رجلٌ عجوز خلف عربة صغيرة يبيع السجائر.

قال العجوز، من غير حتى أن يرفع رأسه:

"وقفنا الدَّيْن... الدَّيْن ممنوع."

وأشار إلى ورقةٍ طُبعت وعلّقت بجانب العربة، كُتب عليها بلغة عامية:

"ممنوع السلف، عمنا قد حلف".

أخرج مساوئ من جيبه مبلغًا قدره خمسمئة ريال: ورقتان من فئة المئتين وورقة من فئة المئة، وكانت الأوراق شبه ممزقة. مدّ له العجوز سيجارة «لاكي» مغلّفة في كيسٍ بلاستيكي حراري.

لم يشكر مساوئ أحدًا. فقط كتف سلاحه، ومضى.

مرّ بجانب مقهى "زكو"، حيث طاولتان خشبيتان خارج المقهى، إحداهما مشغولة بجارين من الحي: يسلم، الرجل الحنون الذي يدرّس رياضيات في مدرسة خصوصية، يرتدي قميصًا مقلّمًا ويضع نظارة مستديرة، وعيناه

تراقبان كل ما حوله بحذر أبٍ لا يتوقف عن القلق. إلى جانبه الدكتور ماهر، الجراح المعروف في مستشفى الجمهورية، وجهه شاحب من مناوباتٍ طويلة، لكن صوته لا يزال يحمل وقار جامعة عدن والإنهاك معًا.

أمامهما، تنتشر بسطات الروتي، وأحدُ البائعين يصرخ: "القرص بمِية!" ومن مطاعم المخابزِ القريبة، تتصاعدُ رائحةُ الأسماك، تختلطُ بأحمرِ الطماطمِ المتكدسةِ على عربات الخضارِ القريبة.

وفي الخلفية، يعلو صوت البائع:

"كيلو طماط بألف ريال... كيلو بطاط بألف وخَمْس!"

باصات الأجرة تكتظ عند الجولة، تتزاحم حول عائلة تقف على الرصيف، وصوت المنادي يعلو من المايك اليدوي:

"معلا – قلوعة!"

وفجأة، ظهر مساوئ... بوجهٍ مشدود، وعينان تشبهان غروب البحر.

قال المنادي فور رؤيته:

"ويه، ويه، معك شمة؟"

ردّ مساوئ دون أن يغيّر ملامحه:

"ها! تدور مني شمة! شوف أصحاب الباصات."

تابع طريقه راجلًا، يتلفّت يسارًا ويمينًا، كأنه يبحث عن صيدلية قريبة، أو عن شيء أكثر مزاجًا من مجرد دواء.

تابعه الدكتور ماهر بنظره، لاحظ شيئًا مضطربًا في خطواته، في وضعية البندقية، في نظرةٍ تائهة بين الزحمة.

سأل يسلم بصوت منخفض:

"ذاك مساوئ... ماله يمشي كذا؟ شكله مش طبيعي!"

تنهّد يسلم، ثم هزّ رأسه قائلاً:

"ايوة هو يا دكتور... بس والله حتى أنا ما عدت أفهمه!"

عاد الدكتور ماهر يراقب المسافة التي غاب فيها مساوئ، وهمس لنفسه:

"فيه شيء مش طبيعي... الله يستر عليه."

مر مساوئ بجانب عتبات صيدليات كثيرة. كلها كانت مفتوحة، لكن قدماه تجاهلتها كأنها غير موجودة. لم يكن يبحث عن دواء، بل عن صيدلية بعينها... مكان يعرفه جيدًا، ولا يرده. عند كل ضوء نيونٍ أبيض كان يُطفئ عينيه لحظة، ثم يعيد فتحهما على صمتٍ داخلي... كأن الشوارع تضيء له الطريق، وهو يصرّ على أن يمشي في عتمته الخاصة.

في آخر الشارع، توقّف أمام صيدليةٍ بدت وكأنها تنتظره. دخل بصمت، لم ينبس بكلمة، أخذ منها شيئًا صغيرًا، وضعه في جيبه، ثم خرج.

لم ينظر إلى الرفوف، ولا إلى الصيدلي، وكأنه جاء ليأخذ ما كان يعرف أنه له... منذ البداية.

خرج، والشارع من خلفه يشبه ممرًا في ذاكرة قديمة، وأمامه كانت الطريق لا تقوده... بل تتفرّع داخله.

إلى حيث يقبع (شِلْنْجِن)، وإلى حيث البقعة السوداء كخطيئة سابقة للندم.

❊ ❊ ❊

٥

حين وصل إلى باب منزله في حي (معسكر عشرين)، توقف.

الباب العتيق، بنقوشــه الهندية الباهتة، بدا كعتبة لعهدٍ قديم... كأن لمســة المقبض قد تفتح عليه ماضيًا لا يُغلق.

وقف هناك لحظةً، يمدّ يده نحو المقبض كما لو أنه يســتأذن من بيتٍ لم يعد يعرفه. كانت الرطوبة تزحف من تحت الباب، تحمل معها رائحة موحلة... كرائحة أحذية قديمة سقطت في الوحل ثم جفّت على شؤمٍ لم يغادرها.

ســمع خلفه مواء قطة جائعة. كان يعرف ذلك الصــوت جيدًا. كانت تعيش قرب الحائط الخلفي، وقد أطلق عليها ذات ليلة اسمًا عبثيًا:

"البسّة الكئيبة".

لكنه لم يعد يجرؤ على مناداتها.

فتح الباب، وصـريره شـقّ الصـمت، فاختلط بصـوت أمواج كريتر، البعيدة، وهي تضرب الصخور. وكأن البحر نفسه كان يحمل جُرحًا... ولم يجد بعد من يســمعه. في الداخل، كان الهواء مثقلاً برائحة الشــاي المُلبن بالحليب، يتصاعد من إبريق لم يُغسل منذ أيام. ربما لأن الماء انقطع عن كريتر، أو لأن البيت لم يعد جزء من تفاصيل الحياة.

الجدران متشــققة، كأنها تحاول أن تنســى كل ما سُــمع بداخلها. الســتائر المترهّلة ترتجف من نســمة عابرة، كأنها تســتنكر فتح الباب. صــوت آذان

العشاء، يتسلل من جامع أبان، يخترق صمتًا كثيفًا في الغرف، صمتًا يُناقض ضجيج العالم الخارجي.

رآها... جالسة في الزاوية، ظهرها محنيّ كقوسٍ من قشّ مُبلل، تمسك بدميتها الممزقة؛ تلك التي اشتراها لها من عدن مول، يوم كانت تضحك ببراءة ناعمة. تحتها سجادة بالية، نُسجت خيوطها بلونٍ أحمر باهت، وعلى أحد أطرافها بقعة دائرية من حبرٍ قديم، لا أحد يعرف كيف وصلت هناك. عيناها، بلون بحر عدن، كانتا تفيضان بحزنٍ يعرف أنه صنيعة يده، ولا يدري كيف يُصلحه. تبادلت معه نظرة... لم تكن عادية، بل كمرآة متكسرة تعكس وجهًا لا يريد أن يراه.

مرّر يده على وجهه، شعر بحبيبات رمل عالقة في لحيته. كأن تراب (ساحل أبين) زحف معه إلى البيت، ليهمس له: "لن تهرب من الطوفان القادم." حاول أن يبتسم، لكن شفتاه لم تطاوعانه. بدتا كشقّين جافين في خشبٍ قديم. الكلمات تحجّرت في حلقه، كما تتحول القهوة إلى رماد إذا تُركت كثيرًا على النار. اقترب منها بخطى ثقيلة، كأن الأرض تستعيد منه ما ظن أنه نسيه. ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة... هشّة، كزجاج يتشقق تحت شمس الميناء.

همس:

"كيف حالكِ؟"

صوته خرج مرتجفًا، كنسمة ضائعة في زنزانة الصولبان، يخشى أن تعود عليه

إجابتها كصفعة قديمة. مدّ يده نحو كتفها... ثم توقفت في الهواء، كأنها اصطدمت بشيء لا يُرى: دمعة، ذكرى، أو صدى بكاءٍ قديم. تراجع خطوة، لا منها... بل من كل ما قد تكشفه رؤيتها.

عائشة، التي عرفت القسوة قبل أن تتعلم هجاء الحروف، نظرت إليه. عيناها لم تكن باردتان... ولا دافئتان. كانتا كهواء فجر عدني في يوم عيد... ساكن، لكنه يحمل غصة. ارتجفت شفتاها، ثم أغلقت عينيها كما يفعل الغريق حين يستسلم للموج. دمعة لامعة استقرّت في زاوية عينها، لم تسقط. بقيت هناك، كأنها بوصلة خيبة لا تعرف الطريق.

لم تنطق. فقط نظرت إليه كما تنظر قطة إلى باب مغلق. وهزّت رأسها... هزّة خفيفة، لكنها حملت كل أعوام الغياب. شدت على دميتها، وكأنها آخر ما تبقّى من الطفولة. كان يسمع أنفاسها... أنفاس تحكي بصمتٍ رواية لم تُكتب.

شيء بارد تسلل إلى صدره، يشبه نسيمًا من نافذة عتيقة، أو صوت الموج حين يسرّ للحجارة قصصًا لا يصدقها أحد.

لم يتكلم.

لم يقترب.

فقط تراجع، كأن خطوة إضافية قد تُسقطه.

نظر في عينيها...

كانتا كبحر الخليج في موسم الرياح:

هادئ في السطح... لكن تحته عواصف تتربّص.

أراد أن يصدّق أن الزمن سيُرمم ما كُسر.

أن الغياب قد يمحو الشروخ.

لكن بداخله، كان يعرف أن بعض الأشـياء لا تذوب... بل تتحجّر في الزوايا، تنتظر لحظة الانهيار. وبينما هو يهمّ بالخروج من الغرفة، سمع ارتطام شيء صغير. كانت دميتها قد سقطت، ارتطمت بالأرض ولم تصدر صوتًا. لكنه سمعها. سمع فيها كل ما لم تقله.

مرّ بجانب جنّات، ورائحة الإطارات المحروقة تنسـاب من ثيابه، كدخانٍ صـاعد من مقابر الحرب. حرارة المقلى تلفّ الجدران، كظلال نسـاء يدرن حول قدر الزربيان في عزاء عدني. لكنّ برودة يديه، المغطّاتين بغبار البنادق، لم تُذِب الجليد الراسخ في صدره.

ألقى التحيّة كمن يرمي حصاة في بئرٍ جفّ ماؤه:

"السلام..."

صـوته جاف، كقرع طبلة ممزّقة. جنّات، وهي تحرّك المِلعقة في قدر الفول، ردّت بتردد:

"أهلًا بعودتك..."

فكّرت أن تحتضنه، ثم تذكّرت توبيخه القديم حين فعلت.

"أجيب لك شيء تأكله؟"

عيناها تسـقطان على كيس القات تحت إبطه. مسـاوئ يحدّق في الذباب،

يدور حول مصباح المطبخ:

"هل... الفئران وصلت إلى المطبخ؟ أشم ذبابة تحترق!"

كلماته تناثرت كزجاج نُزع من شباك محطم. تجمّدت جنّات. الحنّاء في كفّيها تحوّلت إلى لون الدم تحت ضوء القمر المتسلل من الشباك.

"ذباب؟ تقصد البطاطة المضغوطة؟"

صوتها تكسّر كقطعة فخّار سقطت من يد طفل. أشار نحو عنكبوتٍ متدلٍ من الباب:

"لا... انظري إليه... كأنه يحمل خريطة المطبخ، أو خطة الهروب من معسكر العند!"

التفتت نحو الصندوق الخشبي حيث تُخبّئ مضرب الذباب، بينما واصل هو حديثه إلى العنكبوت:

"ماذا تقول يا سيّد الخيوط؟ الجيران... بدأوا بالنميمة!"

أخرج خنجره اليافعي، قرّبه من ظلّ العنكبوت، وهمس كشيخ قبيلة في مجلس قات:

"الذباب... مخزّن فوق خدّي... أفتح له باب الديوان؟"

وضع نصل الخنجر على خده، حيث برعمت زهرة خضراء من رائحة القات.

جنّات تراجعت، كأن ظلّه تحوّل إلى وحش الجراد في حكايات المزارعين.

"الجيران يتكلمون؟ عن إيش؟"

صوتها متردّد، يرتجف.

مســـاوئ ينفض الذباب من شـــعره، ثم قطّب حاجبيه وهو ينظر إلى الباب، بخطوة راقص في ميدان الشرح العدني:

"الجيران؟ أصحاب هم والذباب... افهمي!"

ثم خرج، وأغلق الباب بلين... كأنما يترك صـــوته حبيسًـــا داخل قنينة الغاز خلف الفرن.

❊ ❊ ❊

٦

دخل مساوئ الغرفة... لكنها لم تكن غرفة.

تحوّلت فجأة إلى كابينة خشبية، جدرانها من الخشب الأحمر، ثقيلة الرائحة، مشـبّعة برطوبة قديمة... كأن عرق رجال غرباء ما زال عالقًا بها. على الجدار المقابل، هاتف أسـود يتدلّى بسـلكٍ ملتف كأفعى جائعة. كان مائلًا، كأنه في وضع انتظار عبر الزمن، لا يرنّ إلا في اللحظة الخطأ.

رنّ الهاتف.

(تن... تن... تن...)

الصـوت لم يكن جرسًـا، بل صـفيرًا داخل رأسـه، يضـربه كآلة حفر تنخر في أعماقه.

تقدّم، بقدمين مثقلتين، كأن كل خطوة تمرّ فوق شظايا من ذاكرته.

رفع السماعة، وأبقاها بعيدًا عن أذنه.

"هل أنت موجود؟"

صوت جاف، ساخر... مألوف بطريقة مزعجة.

"من المتصل؟"

ابتلع ريقه بصعوبة، كأن شيئًا حادًا انزلق في حلقه.

"أنا كذبة قديمة... دفنتها بيدك، لكن نسيت أن تغلق الحفرة!"

"شخص من الماضي؟"

"وهل تعيش في غيره يا مساوئ؟ أنت مقيم في قاعه... ولا تزال تحفر!"

سكت.

نظر حوله... الجدران تضيق. السقف صار من ورق، والهواء مشبع برائحة رطبة. الساعة على الجدار تتحرك بشكل غريب، عقربها يطفو، كأنه في ساحل أبين. في زجاجها، ظهرت صورة: نسيم حميد، وسط الحلبة، جسده لامع بالعرق، يده مرفوعة كمن أعلن السيطرة. تحت قدميه... خصم مهزوم. مساوئ اقترب... الوجه المهزوم، كان يشبهه. تحسّس خده... الصفعات لم تكن من نسيم، بل من والده. الجولات التي خاضها، لم تكن في الحلبة، بل في غرفة المعيشة... بجوار الراديو القديم، وصوت (أمل بلجون).

عاد الصوت من الهاتف:

"كنت تقدر تكون مثله!"

"نسيم؟ محظوظ... لأنه بريطاني."

"لكنه يمني... وأنت ابن عدن."

"لو عاش هنا، كان انتهى مجنون في ركن بالمعلا!"

"لكنه كان سيحارب. أما أنت، فقد اكتفيت بالهزيمة!"

"أنا اكتفيت من موهبتي، ولدت شاعرًا. لكن أول قصيدة كتبتها، أحرقها أبي."

"وماذا كتبت بعدها؟"

"كتبت بســلاحي... بأفعالي... ضــربت، صــرخت، هربت من كل شيء."

"تتذكر أول كذبة كذبتها على نفسك؟"

صَمت...

"قلت إنك ستفوز بشاعر المليون... لكنك لم تحاول حتى!"

"تذوقت طعم الحلم... وطلع مُر."

"أحلامك صغرت... صارت أقل من وجعك!"

ضحك مساوئ، ضحكة خاوية:

"ذرة في محيط اليأس..."

ثم همس:

"لكن حتى المحيط له شــاطئ. أما أنا فكنتُ ضــحيةً في وحلٍ بلا مخرج! بصراحة... نحن الذين ما احتضنّا أحد... كبرنا واليأس صار عاديًا بالنسبة لنا."

"أنت ضــحية لأنك لم تتحرر من والدك، وجلّاد لأنك ما حررت عائشة منك!"

"كأنك تتهمني بجريمة!"

"أنت على وشك ترتكبها!"

شهق.

"الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها... مع جنات. صحيح أني لم أخنها، لكني هجرتها... يمكن لســنوات. هربتُ منها، من اهتمامها، من

جسدها الدافئ."

"أنت مجنون. لم تكن تهرب من جسدها... كنت تهرب من نفسك!"

ضحك مساوئ، صوته يختنق:

"هاا!! مجنون قلت لي! لو كنت مثل نسيم... بكون بطل؟ صح؟ إلا صـح... هو تعتبره بطل! أنا في نظرك مجنون! عارف أيش قصـدك... قصـــدك إن المقاتل بالحلبة بطل! ناجح! لكن من يقاتل على لقمة العيش، من يتصـارع مع وحش الحياة، يصـير ضـحية... أو جلّادًا. فين العدالة... هاا!؟! فين؟! هيا تكلم!"

صمت.

كل شيء داخله كان يتقيأ ماضيه... ولا أحد يستمع.

تمتم، لا يدري إن كان يخاطب نفسه، الهاتف، أو الفراغ:

"هل أنا موجود؟"

❊ ❊ ❊

٧

فتح عينيه... كان داخل غرفته. ضوء الشارع يتسلل من النافذة، وصوتٌ نادى من زاوية الغرفة. عند الحائط، وقف (شِلْنْجِن).

"أنت موجود... لكن واقف بعيد... خائف. لو سمعتني زمان، كنت تحررت. لكنك بقيت ضحية. وبعنادك... ناوي تخليهم ضحايا مثلك."

"من هم؟ من تقصد؟"

(شِلْنْجِن) خلع حذاءه، وأسند ظهره للجدار، وقال بهدوء:

"أنت تعرفهم... عائشة وجنّات."

انقطع الضوء. اختفت أضواء الشارع، والظلمة تسللت كدخان عالق بستائر النوافذ. المروحة بدأت تبطئ حركتها: (تك... تك... تك...) كأنها تعلن استسلامها، قبل أن تتوقف تمامًا. الكهرباء، كالعادة، قررت الخروج عن الخدمة. وربما لن تعود قبل اثنتي عشرة ساعة.

مساوئ لم يكن يملك بطارية تكفي. جاره (يسلم) كان يملك ألواحًا شمسية. هو؟ اكتفى بمروحة شحن صغيرة لغرفة عائشة وجنّات، وترك لنفسه هواء الشارع. فتح النافذة، أشعل شمعة، ونظر نحو الركن المظلم من الغرفة. هناك، جلس (شِلْنْجِن). لا يتحرك، لا يرمش، كما لو كان جزءًا من الظل نفسه.

قال مساوئ، بنبرة فيها استسلام أكثر من لوم:

"كلّ ما ظهرت لي في الغرفة... تنقطع الكهرباء!

حتى هي ما تطيقك يا منحوس!"

❊ ❊ ❊

٨

لم تكن غرفة مساوئ تشبه أي غرفة معيشة. لم تكن للراحة، ولا للنوم، ولا تصلح للعمل. لكنها كانت... عالمه. بناها داخل هذه المساحة الصغيرة، وحصّنها. لا أحد يدخلها. لا عائشة، ولا جنات. حتى في غيابه، لا يُسمح بلمسها. حين يدخلها، يذوب. يغيب لأيام، أسبوع، لا يُرى، لا يُسمع. جالسًا بصمتٍ مع (شِلْنْجِن)، أو نائمًا كتمساحٍ غارق في سباته العميق.

لو كانت قصة خيال علمي، لقلنا إن في جدار الغرفة بوابة زمنية، يخرج عبرها مساوئ إلى بعدٍ آخر. لكنها ليست قصة خيال علمي. ومع ذلك، كانت هناك غرابة حقيقية:

كيف لشخص أن يبقى كل هذا الوقت وحيدًا، دون ملل؟

مساوئ لم يرَ في ذلك شيئًا غريبًا. جنّات، من جهتها، لم تصدق ذلك أبدًا. كانت تشك أن شيئًا ما يحدث هناك. أحيانًا، تمر بجانب الباب وتسمع صوته يتحدث. مع أكثر من شخص. ربما مكالمة جماعية؟ لكنها تحدث بعد منتصف الليل!

رائحة الغرفة؟

مزيجٌ من براز الفئران ودخان سجائر (لاكي).

العناكب بنت بيوتها في الزوايا، ومدّت خيوطها في السقف.

سحالي الوزغ تبيض فوق الخزانة، وصغارها تنتشر في الشقوق، تلك التي

حفرتها ديدان الأرض... كأنها أنفاق سـرّية لجنسٍ جديد من الحشـرات. وفي ركنٍ صــغير، حيث بقعة شــاي ســوداء دائرية، تشــبه بوابة نجمية... كان (شِلْنْجِن) يعبر منها. لم يكن يفارقه؛ أقرب صديق له... لكنه ليس بشريًا!

يقول مسـاوئ إن (شِـلْنْجِن) وُلد من انعكاسـه الأثيري، ويتغذّى على سُـمِّيَّة الأفكار التي يُنتجها. وإن لم يجد ما يكفيه، يبدأ بتحفيز مســاوئ... كي ينتج المزيد. كي يمنحه شيئًا دسمًا... يقتات عليه.

❊ ❊ ❊

٩

قبل عامين، في مساء مثل هذا، عاد مساوئ من الغربة، بعد أن طرده الكفيل إثر مشكلةٍ لم تتضح أسبابها. خرج خروجًا نهائيًّا، وعاد مثقلًا بالديون، ولم يُخبر أحدًا بما حدث. انطوى على نفسه داخل الغرفة. لم تكن عائشة، ولا جنّات في المنزل. بقي هناك أطول فترةٍ في حياته... دون كلمة، دون صوت.

كان يحاول أن يتخلّص من حياته، صراعه الداخلي كان أضخم من طاقته. الأصوات في رأسه كانت تدفعه نحو الجنون. كان في الظلمة يدخن سيجارة، وفي يده كوب شاي أحمر ثقيل... تحول لونه إلى الأسود وهو يقرأ رسالة من صاحب المنزل تُطالبه بدفع الإيجار، وإلا...

غضب. رمى الكوب نحو الجدار. تناثرت شظايا الزجاج، وارتسمت على الجدار بقعة سوداء دائرية. لم تختفِ. اتّسعت يومًا بعد يوم. حتى جاء اليوم الذي خرج منها (شِلْنْجِن). أسود تمامًا. فمٌ أزرق مشقوق. عينٌ تعكس الشروق، وأخرى مظلمة. أصلع. ذو أنف طويلة.

ابتسم كقاتلٍ خرج من الزنزانة قبل لحظة من إعدامه. وقف أمام مساوئ كعبدٍ وجد سيده في سوقٍ قديم. نظر إليه مساوئ باشمئزاز وخوف:

"أيش يفعل هذا الكائن في غرفتي!"

ركض خارجًا. لم يعد إلا بعد شهر، مقنعًا نفسه بأنها كانت هلوسة لا أكثر. بعد فترة، وهو عائد من وظيفته الجديدة، نسي شيئًا مهمًا: ملف رقمه

العسكري الجديد. جلس، محتارًا.

"أين وضعته؟"

فجأة... سمع صوتًا دافئًا يهمس:

"الملف مع صقر... نسيته في سيارته."

تجمّد. تذكّر أن صقر أوصله فعلًا. ولم يتحرّك.

قال له الصوت بهدوء:

"لا تخف... أنا لا آكل البشر. أتغذّى فقط من طاقتهم السلبية.

هذا هو مكاني. وأنت سيدي. أنا خادمك، انعكاسك... وُلدت من صميم غضبك. لكن مش عدوك.

بخصوص الملف... تأكد. اتصل بصقر."

اتصل.

أكّد له صقر أن الملف موجود. أغلق الهاتف، ورفع رأسه. فوق الطاولة، تحت ضوء سراج يعمل بالبطارية، ظهرت صورته في المرآة. لكن خلفه... ظهر (شِلْنْجِن)، واقفًا في الظلمة. شهق مساوئ.

"ما فيش معك وجه غير هذا؟!"

ضحك (شِلْنْجِن):

"ما له وجهي؟ ما أقدر أغيره. هو كدا. وبعدين... تحسب وجهك مليح؟ قدنا منك وفيك... زيك، قبيح."

"وجهي قبيح، بس مش زي وجهك! وجهك تقول لُخامه متفحمة

انفجرت... البس قناع على الأقل!"

ضحك (شِلْنْجِن) طويلاً. ضحكة مرعبة... لكنها جعلت مساوئ يشعر بقليل من الأمان.

"البشر هم اللي يلبسوا الأقنعة... يعملوا تجميل... يغيروا وجوههم.

لكن أنا لا، لازم أقبل شكلي. وأنت... لازم تقبلني. كما أنا."

تمتم مساوئ:

"أيش اسمك؟"

فجأة، ارتفع صوته، فاهتزت الجدران:

"(شِلْنْجِن)... المجنجن!

أمي من جُبَن... وأبوي من عدن!"

❊ ❊ ❊

١٠

ابتسم مساوئ وهو يتذكّر أول لقاء له مع (شِلْنْجِن). ذلك الكائن الممسوخ الذي خرج من بقعة شايٍ سوداء في الجدار، وقال بصوتٍ مرتفع:

"أنا (شِلْنْجِن) المجنجن، أمي من جُبَن... وأبوي من عدن!"

تذكّر كيف ردّ عليه مفزوعًا:

"يخرب بيت أمك يا أخي!"

واليوم؟ صار وجوده مألوفًا. بل يأنس به أحيانًا، ويضجر منه أحيانًا أخرى. كأن (شِلْنْجِن) صار له طعم غريب... مزيج من الراحة والشؤم. وهذا التناقض بالذات، هو ما يُميّز علاقته بصديقه غير البشري... ذلك الذي لا يعرفه أحد، سوى مساوئ. سوى الظلّ الذي لم يتركه يومًا.

❊ ❊ ❊

١١

أطفأ الشمعة. لمعتها ذكّرته بتلك الشعلة في مصافي عدن... تلك التي ظلت مشتعلة، حتى خمدت، ومات بعدها الاقتصاد. ومنذ اشتعال الحرب... وعدن تغرق في الظلام.

أدار عينيه عن تشققات الجدار التي تذكّره بمنزلهم القديم في حي الطويلة. الجدار الذي تساقط جصّه يوم اهتزّت المنطقة بانفجارٍ مجهول. منذ ذلك المساء الذي التهب فيه أفق (جبل حديد)، وصارت رائحة البارود تشبه رائحة فرنٍ أُطفئ بعد حريق. الجدران التي كانت مزينة بنقوشٍ قرآنية كجامع أبان، صارت تُشبه لوحات إعلانات ممزقة.

يد أمه، وهي تمر فوقها ذات مساء، همست:

"البيوت تُصلحها الأرواح، لا الحجارة."

لكن حتى الحجارة هنا... شاخت. شاخت كوجه والده، المُنهك من حمل قسوةٍ بلا مبرر. الكآبة تتسرّب كالرطوبة من السقف، تترك بقعًا بنية... تشبه تلك التي على جبين (سالم) الجار العجوز، الذي كان يخبّئ خبزه تحت الوسادة... خوفًا من المجاعة. الهواء ثقيل برائحة ماء (المَجلّة) الراكد، يمتزج بعطر القرنفل الذي كانت أمّه تطحنه لطرد الحسد. الأثاث يئنّ... كصدر امرأةٍ حملت عشرين لترًا من الماء من القلوعة إلى الشيخ إسحاق. السرير المهترئ كقاربٍ عالق تحت جسر البريقة، في خشبه أصدافٌ لامعة

كدموعٍ جفّت من البكاء.

جلس على الحافة. سمع زجاجًا يُداس في الشارع. لا يدري... هل هم صبيان يلعبون؟ أم بقايا نافذة من (فندق عدن) المغلق بصفائح صدئة؟

أضواء الشارع، التي تعمل بالطاقة الشمسية، تُلقي ظلًّا شبيهًا بجذع شجرة (الديمان)، تلك التي انشطرت في العاصفة الأخيرة... فصار فرعاها يشبهان يدين تُصلّيان من أجل سلامٍ لم يأتِ.

إذا لم تهزمني الحرب... هل تكسرني الظروف؟

هل الخراب في الشوارع... انعكاس لداخلي؟

هل أصبحتُ مثل والدي؟

وجّه الأسئلة إلى (شِلْنْجِن)، بينما أصابعه تتحسّس خريطة ندوبٍ على ركبته، تلك التي تُركت أثناء سقوطه في انفجار جبل حديد. في الظلام، بدا وجه والده كصورةٍ في مرآة مُتعفّنة، إطارها محفور عليه تاريخ زواج... لم يكتمل. رائحة القهوة المُرّة التي كانت تُخمّرها أمّه، اختلطت برائحة الطين الأحمر من (وادي الحُسيني)، حيث يقال إن التراب هناك يبتلع الأحزان... كما تُغوي أزهاره الوجدان. حتى الدمية الممزقة في الزاوية بدت كطفلةٍ فقست من بيضة عصفورٍ ميت. عيناها الزجاجيتان تُحدّقان نحو شباكٍ سُدَّ بخرقٍ من سترة والده العسكرية.

صرخ في داخله:

"أنا كالطائر الذي يبني عشّه على حبل غسيلٍ مقطوع!"

تذكّر أيام لعبه خلف جدار المدرسة المهجورة، بعد أن سكتت الأجراس بسبب الإضراب، وتوقّف المعلمون عن الحضور. كانت خطواتهم على الأرضية المتشققة تُحاكي رقصة (المركح)، لكن الموسيقى الوحيدة... كانت صفير الريح، تعبر زجاج النوافذ المُحطّم.

في زاوية الغرفة، لمح ظلًّا يشبه عمود إنارةٍ منحنيًا... كرجلٍ يبحث عن شيءٍ تحت الأنقاض.

تمتم:

"متى صار الخوف طعمًا معتادًا؟"

في خياله، وقف والده كـ (شجرة مقطوعة الرأس) في فناء بيتهم القديم في حي (الطويلة). الجذع المتشقّق... يذكّره بيدٍ رفعت حزامًا جلديًا، مُزخرفًا بسيوف حميرية، ضربه حتى نزفت كرامته التي لم تُقدّس أبدًا. صوته، الرنان كسقفٍ مُتصدّع في (جامع العيدروس)، ظلّ يتردد في أذنه كلما مرّت رياحٌ باردة من جهة صيرة:

"أنت حفرة في أرض القبيلة... حتى الفئران تهرب من ظلّك!"

حاول طرد الصورة. لكن رائحة زيت (الرانجيل)، الذي كان أبوه يمسح به الحزام كل ليلة،

اختلطت برائحة عرق أمّه وهي تخبز خبز (الطاوة).

"ليش تركتني مضحكة يتبارى الجميع في سردها؟"

همسها، وضغط على صدره... كأنه ينتزع خنجر (الجعبي) من قلبه. تذكّر

الرحلات إلى (عمران) و (فُقم)، سـلال (الوزف)، والبحر وهو يهمس باسمه:

"مساوئ... مساوئ..."

كأن عدن كلها تردد لعنة التسـمية. في لحظة يأس، غمس يديه في ماء مالح، أراد أن يغسـل النمش الذي ورثه عن أبيه. لكن البقع الزرقاء على كتفه- آثار حروق سجائر- ازدادت عمقًا.

صرخ في الظلام:

"أنا مش كبشك، مش ضحية جديدة في مذبح العائلة!"

تخيّله جالسًا على كرسي خشبي مزخرف بنقش (المشقر)، يُشير إليه بعصا الزعفران، التي كانت تُعلّق لجلب البركة:

"حتى العصـا تعرف طريقها لظهرك... وأنت لا تعرف طريقك إلى المسجد!"

في يده بندقيته الروسـية (أبو كرسـي)، يداعب قضـبانها بخرقة مبللة بزيت حارق، كمن يُصـلح سـلاحًا لمعركة ضـد أشـباحه. رفع عينيه نحو الباب الموارب. دخان البخور تسلّل من فتحة المفتاح... ورسم شبح طفلٍ يتربّص خلف الستار، عيناه تشبهان بئر (برهوت). لحظة... واختلط الدخان برائحة الحنّاء. رائحة شـعر عائشـة يوم ولادتها. يوم رفض حملها... لأنها "بِنت". والآن، هي تُشعل قنديل بيته الوحيد. تدافعت الصور كأمواج (خليج عدن) في منتصف الليل:

الطفل المختبئ تحت المصباح النحاسي، كلما سمع وقع خطوات أبيه على السلالم.

عائشة الصغيرة، تمسك يده الملطخة بالبارود، تُعلّمه كيف يكتب اسمه على الرمل.

ظهره ظلّ منتصبًا، كجذع نخلةٍ وسط عاصفة، وصوته يهتزّ كسلكٍ صدئ.

نادى بتعب:

"عائشة... جيبي الشاهي... بدون سكر."

"ليش ما تشربه محلّى، زي الناس؟"

"السكر... مثل الندم، بزيادته يخنق. مش وقت فلسفة، جيبي شاهي."

خرجت عائشة من الغرفة، وحبلٌ من ضوء القمر المنسدل من نافذة (شارع أروى) يلفُّ عنقها كطوق فضةٍ قديم. صوت والدها انساب كعبق قهوة خضراء في مطحنة الجدة... تقدّمت خطواتها على ألواح الأرضية المتشققة، كما تمشي العذارى في (الزَّفَر)، يحملن جرار الماء على رؤوسهن، خائفات أن تُسكب قطرة واحدة من أملهن... قبل الوصول إلى الزرع اليابس. كأس الشاي في يدها– بيضاء كقشرة بيضة نعام– ترتج، كنبضةٍ في عنق طائر صغير. قبل أن تدخل، ظهر (شِلْنْجِن) من العتمة، يهمس ساخرًا:

"مستعجل على الشاهي؟ ناسي إن بكرة العرض العسكري؟ لَمّع سلاحك، يا بطل!"

مساوئ لم يردّ. أدار وجهه نحو الباب.

وقفت عائشة. والسلاح الروسي القديم في حضنه... بدا كأنه (مِقلاع)، كان يلعب به أيام طفولته على سواحل (التواهي). الآن صار مقلاعًا من نار.

"انظر إليّ... بس انظر!"

قالتها عائشة... لكن الزمن تمطّط، كشَريشةِ عِجلٍ على رمال (أبيَن)، وكلما أرادت أن تقترب، كانت تسمع صفير الريح في زجاج النافذة المحطم... نغمة واحدة... تسبق العاصفة. ثم... انشقّ الهواء كأذان (مسجد النور) المشوَّش. رصاصة واحدة. حوّلت دم البنت إلى نهرٍ من حبرٍ أسود، سال فوق روايةٍ منسية. سقطت عائشة. كزهرة (ياسمين) تهتز على غصن الجدّ، قبل أن تنتشر في الهواء.

مساوئ يرى دمها ينساب على نقش السجاد الأحمر، كأن القتل لم يكن سوى خطّ آخر... في نقشةٍ مسحورة. كان صوت جنّات، وهي تمزّق الملحفة، كصرخة نساء المآتم في الحارات. في الظلّ، يرقص (شِلْنْجِن) على الجدار. في يده حزمة (قات) مغسولة بدم البنت. يهزأ، كأن لا شيء حدث:

"كنت عارف... كنت عارف، بس لا تبكي... الرجال، لما يخطئوا... ما يبكوش. الرجال ينسون!"

❊ ❊ ❊

١٢

كل ما تبقّى الآن هو الندم. ثقيلٌ كالحجارة. سيحمله مساوئ ما بقي من عمره، بينما (شِلْنْجِن) يتغذّى من ذكرياته، يحطّم ما تبقّى من روحه. يلتف حوله كقيد، يخنقه، يهمس له دائمًا:

"أنت المسؤول عن الفاجعة."

في كل نظرة من عينه المظلمة، كانت الأحمال تتجدّد. تجاوزت تلك الطلقة التي أكّد له أنها خرجت عن طريق الخطأ... لكنها خلفت وجعًا لا يموت. في ركن الغرفة، حيث الجدران تشبه جلدًا يتقشّر من لمسة النسيان، وقف مساوئ أمام مرآة مغبّرة. يتأمل وجهًا لم يعُد يعرفه.

هل هو في مستشفى؟ غرفة انتظار؟ كابوس طويل؟

لا يدري.

فقط، هو هناك... كما لو حُبس داخله إلى الأبد. ملامحه باتت صفحةً للخذلان. خيباته تحوم حوله كما الغربان فوق صهاريج عدن، حين تشمّ رائحة خطر. لا يتحدّث إلى أحد... إلا إلى (شِلْنْجِن)، أنيسه، ظله، جلّاده الناعم. الكلمات التي كانت يومًا سهامًا لعائشة، ارتدّت عليه... كأشباحٍ تنهض مع كل نبضة ندم. كوب الشاي، واقف هناك كأثرٍ صغير لا يُمحى. كأنما يقول له:

"حتى الخطأ... لا يُغتَفر."

بعض الجروح لا تُشفى. وبعض الدماء، حين تُسفك، لا تُغتفر... لا دية، ولا تحكيم، ولا تنازل.

منذ تلك الليلة، كل يوم بات حلقة من كابوس. فقط عدد الطعنات يتغيّر... لا تفاصيلها. الطلقة لم تقتل عائشة فقط. بل فتحت بوابة جحيم، صارت كل لحظة بعدها موتًا صغيرًا. كل وعد بالتغيير جرفه الخوف... كما تجرف أمواج (صيرة) مراكب الصيادين.

عائشة... كانت تنتظر حُضنًا لا يأتي، وابتسامة لا تتشكّل، تنتظر أن تراه أبًا... لا غريبًا يختبئ خلف نظراته.

"كيف لأبٍ لم يُصالح نفسه، أن يمنح ابنته حبًا!"

كل نبضة في قلبه... مطرقة تذكّره:

"خسرتها... وخسرتَ نفسك."

السؤال يعود، مثل رنين في جرس معطّل:

"كيف يعطي الحياة من تذوّق طعم الموت وهو حي؟"

همس، لا يدري أكان يُحدّث ظلَّه أم شبحًا:

"حتى لو لم أقتلكِ بالطلقة... كنت أقتلكِ كل يوم. بكلمة، بنظرة، بصمتي..."

خرج صوته مرتعشًا، يشبه أنين الريح في زقاق (حارة القطيع)، حيث القصص لا تُروى... بل تُنسى.

طيف عائشة بات يسكنه، كما تسكن الرطوبة جدران المنازل القديمة في

(خور مكسر).

هل كانت هنا فعلًا؟ أم أن كل هذا... كابوس في ذهن رجلٍ فقد التمييز، مشوَّشٌ بذنبٍ أكبر من احتماله؟

"لقد ارتحتِ... مني، من هذه البلاد، من كلماتي التي كانت أفظع من الرصاص."

أقنع نفسه أن الموت كان خلاصًا... لا جريمة.

"كنتُ سأمنعكِ من الحياة... من الحب، من التعليم، من الحلم.
كنتُ قيدكِ الذي لا يُكسر".

كل كلمة قالها... كانت كالرصاص. لكنها لا تخرج لتقتل، بل لتخترقه هو. تخترق روحه المثقوبة.

جلس متكئًا على الجدار... كمن يسند ظهره على ماضٍ لا يسانده، بل يُسقطه. رأى في الظلمة... عيني جنّات، نظراتها الممتلئة بالرجاء... ليلة الدخلة، كلها جاءت دفعة واحدة.

"جنات..."

همس بها، كأن الاسم وحده قارب نجاة.

الحب؟ كان هناك. لكنه سمح للشك أن يبني بينه وبينها جدارًا. عاقبها على فعل يخصه، حتى صارت العلاقة بيتًا طينيًا... مهددًا بالسقوط مع كل مطر.

"كيف كنتُ بهذه الأنانية؟ كيف سمحت للشك أن يُدير قلبي؟"

اعترف. لكن بصوت خافت، كأن الحقيقة لا تستحق أن تُقال بوضوح.

لم يُسقطه القدر، بل هشاشته.

الآن، الندم ليس شعورًا... بل هواء الغرفة، صوتها، حرارتها. الندم... صار كل شيء.

❊ ❊ ❊

١٣

قبل سنوات، لم تكن جنّات تعلم أن والد مساوئ قد زرع في ابنه شكًا عميقًا تجاه النســاء. نظرة مســمومة... تُراها دومًا على حافة الخيانة. كانت كلمات أبيه تلاحقه كظلٍّ ثقيل:

"المرأة تُدوِّر الأفضل... لا تأمن لها."

كان يخجل من أن يُظهر مشــاعر تجاه جنّات أمام والده. كأن الحب صــار عيبًا... شــيئًا يجب أن يُخفى. تحت نظرات أبيه القاســية، شــعر أن وجوده بجوارها معصــية. كلما جلســا معًا في غرفة الجلوس، كان يتحرّك بتوتر. يُخفي أي إشارة عاطفية، كأنه يخشى أن يُحسب عليه ضعفًا. بالنسبة لوالده: المرأة خطيئة... والعاطفة خيانة للرجولة. يداه، كلما اقتربت منه، تُكبّلها الخوف. بنى جدرانًا حول قلبه... مرتفعة. قاســية. هشّــة. ومع مرور الأيام... صــار يفقد نفســه. لم يعد يعرف كيف يبتســم. ولا كيف يقول كلمة طيبة. جلس في صمتٍ مفروض عليه، يتألم من حب لا يجيد التعبير عنه.

ذات مساء، قالت بصوت ناعم:

"مســاوئ... ممكن نتكلم شــوية؟ حاســة إن في حاجة تقيلة على قلوبنا... وأنا... نفسي أفهم."

ردّ ببرود، يتجنب عينيها:

"عن أيش تشتي تتكلمي، يا جنّات؟ هذا هو الواقع. علينا نتقبّله."

حاولت أن تُخفي رجفتها:

"أدري... بس إحنا نبتعد عن بعض. ما أشـتي نهدم كل شـيء فوق بنتنا. قل لي... أيش اللي شاغلك؟"

صوته جاء ثقيلًا...

"مافيش شي. ومهما حاولتِ، ما أظن شي بيتغير."

نظرت إليه... تحاول التمسّك بشيء:

"لا تقول كذا. في أمل، والله. وأنا جنبك... لا سِـبتك، ولا ناوية أسيبك."

أدار نظره بعيدًا، كأن الحقيقة تلسعه:

"كل محاولاتك زي المُسـكّن... تهدّي شـوية، وترجّع الوجع أقوى."

قالت بصوت مكسور:

"أنا أشوفك تتألم... وجعك يأكلني. مقدرش أسكت وأنا أشوفك كذا."

انفجر كمن ينهار:

"وجعي؟ تحسبي نفسك عارفة كل شي؟ أنتِ ما تعرفيش حاجة! ليش تحاولي؟ ما تحسي إنك تزيدي الطين بلّة؟"

تماسكت، بصوت متعب:

"أنا مش ناوية أزيدك بلة، مسـاوئ... أنا بس أقولك اني معك، سندك. بس أنت رافض حتى تسمعني كزوجة!"

ردّ بحدةٍ تخفي خوفًا:

"ما أشتي أسمع أحد. أنا مش ناقص... قلبي وهو قلبي قفلته. وخليه كذا، أحسن."

دموعها سالت:

"حتى لو أحبك!"

قال بصوت ميت:

"الحب! هئ! هئ! هذا كلام فاضي... لو سمحتِ!"

شهقت، قالت كأنها تلفظ أنفاسها:

"حرام عليك... أنت أيش أنت، ما تحس؟ شـايفني أقاتل لوحدي، أحتاجك جنبي... بصـوتك، بكلمة... بأي شـي... حسـبي الله ونعم الوكيل."

ردّ بحسم بارد:

"أنتِ تشتي تغيريني. كم مرة قلت لك. يا تقبلي الواقع... أو تبعدي. عشان ما تندمي أكثر."

وعاد الصمت.

جدارٌ جديد شُيّد بين قلبين لم يعرفا الحب يومًا. كانت تحاول الوصـول إلى رجلٍ هشّ، تحكمه تربية مكسـورة. وكلما اقتربت، انكمش. حتى لم يعُد يدري: هل تحدث معها حقًا؟ أم أنه فقط... تخيّل ذلك؟

❊ ❊ ❊

١٤

الغرفة بدت كجدران رمادية، كصـندوق فارغ، لكنه ثقيل. تُحاصـر ذاكرته، وتنفث عليه رائحة قديمة من عجز لا يُغتفر. ضوء شاحب يتسرّب من نافذة مكسورة. مروحة صامتة، والهواء ثقيل... كأنه محشوّ بشَتائم قديمة. جلس على طرف السـرير، يهرب من صـوته الداخلي... عبثًا. الجدران تنظر إليه... جنّات تهمس في رأسه، لا تصرخ... بل تقول الحقيقة بهدوء يُميت:

"زوج سيء... وأبٌ أسوأ."

كلما سـمع نبرتها، ازداد الصـمت داخله ضـجيجًا. في تلك الليلة، لم يكن ينتظر محكمة. كان يُصـدر حكمه على نفسـه في كل سـاعة تمر. رفع وجهه نحو المرآة. رأى رجلاً يشبه أباه... لكن أسوأ. لأنه عرف الألم، ولم يتوقّف عن تكراره.

"كنت أظن أني أرحم... طلعتُ أسوأ من أبي!"

نطقها، وسـكت... كأن الاعتراف كسـر ضـلعًا داخله. أغمض عينيه. أراد أن يُطفئ السيل، لكن صوتًا شقّ سكونه... صوت مختلف... أليَن، وأشد إيلامًا.

"بابا... كُن لي أبًا... متى تعود؟"

كان صوت عائشة...

طفلته التي لم تُمنح فرصـة الطفولة. لا لوم في صـوتها، بل طلب نقي، يحمل وجعًا لا يُحتمل.

"لو أنني كنتُ أبًا يستحقها... لو أنني فقط تعلمتُ الحنان."

تكوّر على السرير. كمن يريد أن يختفي، أن يُمحى، لكن خطاياه كانت ثقيلة... كحجرٍ جاثم على صدره. ثم... ظهرت. امرأة لا تشبه أحدًا. على وجهها مزيج من التعاطف والفضول، كمن يمد يده نحو جرحٍ لا يعرف عمقه... لكنه يرجو أن يلمسه بلطف. كانت تُحس بأن خلف صمته ألمًا...

لم يجد طريقه إلى الكلمات. لم يلتقِ كثيرًا بأشخاص مثلها. أشخاص لا يهربون من حزنه، بل يتقدّمون نحوه. لا بنظرة شفقة... بل برغبة في الفهم. ومع ذلك، ظلّ عاجزًا عن البوح. الكلمات تحجّرت، وكل جملة صارت ثقلًا على لسانه.

جلست بجانبه. كان يراقبها بذهول خافت.

من أين جاءت؟ ولماذا تشعر وكأنها تعرفه منذ زمن؟

في عينيها بريقٌ يشبه الأمل. لكنه تراجع خلف جدرانه.

قالت بصوت هادئ، كنسمة تنسل في غرفة خانقة:

"اسمي فضول. جئت لأساعدك... كنت أعرف."

أجاب دون أن ينظر إليها:

"ماذا تعرفين؟ لم أطلب منك أن تعرفي!"

همست، كمن يوقظ ذاكرة:

"حاول أن تتذكرني."

"لا أريد أن أتذكّر شيئًا. فقط... دعيني..."

"سـأفعل. لكنني سـأعود... حين تكون مسـتعدًا للكلام، سـأعود، مساوئ... لأني أعرف!"

غادرت. أو تلاشـت. لكن كلماتها بقيت تدور في أذنه كصـدى بعيد. شـرارة صغيرة اشتعلت داخله. سؤال خافت بدأ يهمس له:

"من تكون؟"

"ولماذا شعرتُ وكأنها ترى ما لا يُرى؟"

❊ ❊ ❊

١٥

في تلك الغرفة المحاطة بجدران أربعة، لم يكن مساوئ سوى رجلٍ يحتمي بقوقعةٍ باردة... يخفي تحتها جبالًا من الصدمات. كل ما يظهره... اتزان هشّ، بينما روحه تمور باضطراب لا يهدأ. أكثر ما يؤلمه، لم يكن صوت عائشة، بل ما فيه من عتاب خافت، كأنه جرحٌ لا يندمل:

"بابا... ليش؟ ليش ما كنت لطيفًا معي؟"

"ما الذي كان بوسعي فعله؟"

نظر إلى الباب. لا كمن ينتظر... بل كمن لا يعرف كيف وصل إلى هنا.

"من جابني هنا؟"

نهض من مكانه، اقترب. ممر طويل، إضاءة شاحبة، لا نوافذ. جدران باهتة... كأنها مقتطعة من حلمٍ لا تفسير له. ثم سمع خطوات. ثقيلة... مألوفة. شيءٌ في صدره ارتجف. هل هو خوف؟ أم وعي مفاجئ بأن هذا المكان... ليس بيتًا. بل شيء يشبهه. وربما، دون أن يعترف،

أدرك أنه في... مصحّة. دخل رجلٌ مسنّ.

الدكتور ماهر. ملامحه تُشبه رجال عدن الذين تشبه وجوههم التاريخ. وجوهٌ مشبعة بكرامة ومعاناة. اقترب وجلس. قال بنبرة هادئة مصقولة بالخبرة:

"كيف حالك اليوم؟"

لم يلتفت مساوئ. كان يحدّق في السقف، كمن يتفقد غيمًا لن يمطر. بعد لحظة، قال بجمود:

"لم يتغير شيء. كل ليلة أسمعها تناديني... كأنها لا تستطيع مغادرتي!"

أومأ ماهر بصمت.

همس:

"كنت أعرف... كنت أعرف."

ناوله شريطًا من الحبوب، ثم سأل:

"هل أنت متأكد مما حدث؟ أحيانًا، عقولنا تخترع مشاهد لتغطي جراحًا أعمق. ربما لم تكن هناك رصاصة... وربما... عائشة، لم تكن هناك أصلًا."

ضحك مساوئ بمرارة. ضحكة كأنها تنهيدة شخص انتهى.

"كيف تُكذّب من قتل ابنته بيده؟ كيف تنكر موتك الداخلي؟"

قال ماهر، بعينين صامتتين:

"لا أقول إنك تكذب... لكن ما يصدقه العقل، لا يكون دائمًا... الحقيقة."

ارتبك مساوئ.

"لكن... رأيتها... كانت هناك..."

ماهر:

"أحيانًا، ما نراه... مجرد مرآة لما نشعر به."

نهض الطبيب. توقف عند الباب، ثم التفت، وقال بصوت شاحب كاعتراف:

"كلنا نحمل أوزارنا يا مساوئ... لكن لا شيء أثقل من أن نحمل على أنفسنا... ما لا يُغتفر."

وخرج.

بقي مساوئ وحده. تائهًا بين فكرة وفكرة.

"ماهر؟"

تمتم:

"الدكتور ماهر... صح... عرفته".

حك شعره.

"أهاا... تذكرت، أجرى لي عملية في الكتف".

أدار وجهه نحو الباب.

"بس كيف دخل المصحّة دون تصريح؟"

ضحك، ساخرًا من نفسه:

"فشل كجراح، وعاد طبيب نفسي... يجري لي عملية دون شق للجلد... ولا خياطة... هههههه..."

أغمض عينيه. وصمت.

❊ ❊ ❊

١٦

قبل سنوات من الآن... كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا، والضوء يتسلل عبر نافذة صغيرة في غرفة رقم (١٤) في مستشفى الجمهورية. غرفة بالكاد تتسع لسريرين، هو أحدهما، والآخر شاغر. من الغرف المجاورة، كانت تنهيدات المرضى تتسلل كسعالٍ مكبوت، تمتزج بأصوات أقدام الممرضين وهم يعبرون الممر بسرعة تتجاهل الألم. مساوئ كان ممددًا على سريره، كتفه الأيمن مضمد، إثر حادث اصطدام في طريق (البحري)، حين انفجر إطار السيارة القديمة، فانحرفت نحو الحاجز، وارتطم جسده بقوة. كان جسده يؤلمه... لكن الألم الحقيقي لم يكن في الكتف. كانت الشمس تملأ الغرفة، لكنها لم تكن دافئة، بل حادّة بشكلٍ جارح، كما لو أنها تذكّره بأنه ما يزال حيًّا، رغم أن ذلك كان آخر ما يتمناه.

كانت جنات جالسة إلى جانبه، يدها على فخذها، وكأنها تخشى أن تُربّت عليه فيخطئها. بجوارها، أختها تراقب الصمت كمن ينتظر انفجارًا وشيكًا. وفي الطرف الآخر من الغرفة، كانت الصغيرة "عائشة"، بضحكتها الرنانة، تركض ما بين حافة السرير والنافذة، تمسك بورقة رسمت عليها ما يشبه بيتًا مشوهًا ونوافذ كثيرة. ركضت نحوه وقالت بفخر طفولي:

بابا! شوف... ماما! شوفي."

ابتسم، ابتسامة قصيرة، مشروطة، ثم تلاشت بسرعة، مثل ومضة قمرٍ خلف غيمة ثقيلة.

"عائشة... مش وقت الرسم الآن، خبي الألوان للبيت."

سكتت البنت، وانكمشت الورقة في يدها الصغيرة، لكنها لم تبكِ... فقط نظرت إليه نظرة لا يعرفها بعد، نظرة ستسكنه بعد سنوات، وتحاصره كصدى طلقٍ ضاع صوته، لكن ظله لا يزال يرنّ في قلبه.

الباب انفتح بهدوء. دخل الطبيب "ماهر"، الجراح المسؤول عن حالته، يحمل ملفًا طبيًا وعلبة بها شريط صور الأشعة. لكنه توقف عند الباب للحظة، لاحظ البنت الصامتة، الورقة المكمشة، ونظرة مساوئ الجامدة. اقترب، نظر إلى كتف مساوئ ثم همس بنبرة أشبه بمن ينصح ولده، لا مريضه:

"لديك ابنة جميلة وذكية يا مساوئ... حين تضيء المكان، لا تُطفئ نورها."

لكن مساوئ، في تلك اللحظة، لم يكن رجلًا يسمع. كان يرى الحياة كقيد، والعاطفة ضعفًا، والحنان... خطرًا. لم يرد. فقط أدار وجهه نحو السقف، يحاول أن يحصي تشققات الجبس، هاربًا من عيني طفلته، ومن كلمات رجل أدرك ما لم يدركه هو.

خرج الدكتور ماهر من الغرفة، ثم عاد بعد ساعة. لم يكن يحمل ملفًا ولا أشعة. كان يحمل علبة شوكولاتة. ناولها لعائشة بابتسامة أبوية وقال:

"هذه عشان الرسمة الحلوة اللي رسمتيها."

نظر إلى مساوئ:

"بنتك رسمت بيتًا فيه نوافذ كثيرة... وكأنها تتمنى الضوء. أنت النور حقها، بس شكلك مش حابب تنور ولا نافذة."

مساوئ زفر بقسوة:

"أنتم، الدكاترة ... تهروا نصائح وتروحوا."

ابتسم ماهر، ابتسامة رجلٍ يعرف تمامًا ما لا يعرفه الآخر. ثم جلس على طرف السرير وقال، بنبرة لم يعتدها منه:

"مساوئ... أنا تزوجت من سبع سنوات، ولما أشوف طفلة صغيرة، قلبي يرتعد."

توقف لحظة، ثم قال بنبرة أكثر مرارة:

"لما دخلت كلية الطب، كنت أحلم أكون طبيب أطفال، بس ما قَدرت... لأني أنهار في كل مرة أمسك طفل مريض. انتقلت للجراحة، وقلت لنفسي يمكن أنسى... لكن ما نسيت."

نظر نحو عائشة، ثم نحو مساوئ، وعيناه تلمعان:

"أنا ما أقدر أعطي بنت زي عائشة حب أبوها... بس أنت تقدر. لا تفرّط بهذه الفرصة؟"

هزّ مساوئ رأسه دون إجابة. كأن كلماته دخلت إلى مكان عميق، لكن

الأبواب لا تزال موصـدة. خرج ماهر في صـمت، لكنه ترك خلفه شـيئًا أثقل من أي تقرير طبي... ترك أبوةً ضـائعة، تحاول أن تنجو... في جسـد رجلٍ لا ينجب، وقلب رجلٍ لا يَحنّ.

في اليوم التالي، كانت الغرفة رقم (١٤) خالية إلا من صمتٍ ثقيل. الضوء لا يزال يتسـلل من النافذة ذاتها، لكن عائشـة لم تعد تركض... وجنّات خرجت لإحضـار شـيء من الكافتيريا، وتركت إلى جانبه منديلًا ملفوفًا عليه اسـم "أمه". دخل مساعد الطبيب، شاب نحيل بملامح مُنهكة، وقال بهدوء:

"دكتور ماهر صعب يجي اليوم."

رفع مساوئ عينيه:

"ليش؟ خير؟"

تردد الشاب، ثم قال بصوت منخفض، كمن يفشي سرًّا كبيرًا:

"الدكتور... سافر صنعاء من أجل استشارة ثانية للعقم، يقول يمكن يلاقي حل."

صمت مساوئ. شيء ما انكسر فيه.

كأن الجملة جرّت حبلًا في صـدره... فتذكر صـوت ماهر وهو يقول له: "لا تُطفئ نورها..."

ظلّ ينظر نحو الباب لحظة، ثم إلى المنديل الملفوف، وابتلع ريقه بصعوبة.

في الخارج، كانت الطيور تمرّ في السـماء، وكان الميناء في عدن يواصـل ضـجيجه كالمعتاد، لكن في تلك الغرفة، سـقط شـيء لا يُرى: فرصـة، ربما

كانت الوحيدة... ليُمسك بها قبل أن يكبر الفراغ بينه وبين ابنته. ضحكتها التي بدت مزعجة يومًا، أصبحت الآن لحنًا جنائزيًا يطارده كل مساء. كلما تذكّر الرسمة، شعرَ أنه أغلق على عائشة النوافذ، طفلة لا تطلب إلا يدًا تحتضنها... ورفضها.

❊ ❊ ❊

١٧

في الغرفة الكئيبة، فتح مساوئ عينيه على صوت حشرةٍ سقطت من السقف. وفجأة... صوتها.

"أرجوك... بابا، لا تزوجني صغيرة!"

كان صوت عائشة، صافيًا كالنصل. شدّ جسده للأمام، وعيناه ترتجفان، الباب ينفتح... وخلفه ظلّ رجلٍ طويل.

دخل (يسلم)، كما يعرفه... واقفًا كصخرة في مجرى الذنب، ظهره منتصب، وعيناه تلمعان ببريق السنين.

"كيف حالك، يا جاري العزيز؟"

مساوئ يردّ، بابتسامة باردة مشوّهة:

"هل جِبْتَ معك المهر؟ كنتُ بزوجها عليك... أنت تعرف كيف تعتني بها كما يجب، أنت تحبها، صح؟"

لكن (يسلم) لا يبتسم. لا يخجل.

اقترب خطوة، وصوته- الذي لم يعد صوته- شقّ الغرفة:

"لم تكن ابنتك بحاجة إلى زواج. كانت بحاجة إلى أب."

ارتجف قلب مساوئ. انطفأت روحه، لكنه تمسك بقشرة السخرية:

"وهل كنت بتعطيها ما لم أقدر أنا؟ أنت كنت دائمًا هناك... ليش ما أخذتها؟ ليش خليتني أكسرها؟"

اقترب يسلم أكثر... لم يعد هو. صار صوت الحقيقة التي أخفاها مساوئ طوال عمره.

"لأنها لم تكن تُؤخذ، يا مساوئ... كانت تُحب. وأنت لم تحبها، كنت تخاف منها... من شَبَهها بجنّات، من براءتها، من حاجتها إليك."

سقطت كلماته كالمطر الحمضي، تُحرق ببطء.

"كنت صغيرًا... جاهلًا... لم يعلمني أحد كيف أكون أبًا."

ردّ يسلم، صوته ناعم... لكنه جرح كالسكين:

"نعم... لكنك كبرت، وبقيت كما أنت."

ثم اختفى. لكن صوته بقي... كما بقي صدى ضحكة عائشة تلك الليلة. ليلة عيد ميلادها الثالث.

❊ ❊ ❊

١٨

بيت صغير... دافئ. كعكة بسيطة، شموع منحنية، لكن الضحك كان حقيقيًا. عائشة، بثوب زهري، تركض. شعرها يرقص على نغم (أمل كعدل)، صوتها يمزج بين الحياة والعيد. يسلم، يجلس على الأرض، يدور بها في الهواء، وهي تصرخ بفرح:

"فوك! فوك!" (فوق! فوق!)

قال مازحًا لمساوئ:

"بخطفها منك... بتكون بنتي!"

الجميع ضحك. إلا هو. ابتسامة متكسّرة... وفي قلبه طعنة. لماذا لا يستطيع أن يضحك هكذا؟ أن يلاعبها؟ أن يضمها؟ فقط نظر. راقب. صمت. وجنّات مرّت من خلفه، وهمست كمن تُشعل شمعة في قلبه المُطفأ:

"يسلم يعرف كيف يتعامل مع الأطفال..."

ضحك هو... ضحكة مشروخة. ثم قال بسخرية:

"نعم... أب لابنتي!"

لكن صوته كان ينزف غيرة. يسلم لم يسرق ابنته... هو فقط أراها أبًا... كما لم يستطع هو أن يكون. ومنذ تلك الليلة، ترسّخ داخله شيء: أن يَسلم، كان الرجل الأفضل لعائشة. وأنه، كان عبئًا... وربما، موتها... كان خلاصًا... منها. من عينيها اللتين كانتا تنتظران منه كلمة. من قلبها الذي لم يعرف كيف يحتضنه.

١٩

خيّم الصمت في الغرفة. إلا من حشرةٍ تسير تحت بنطال مساوئ. لكن لم يكن صمتًا مريحًا. كان صمتًا يعرف تمامًا ماذا فعل. ثم جاءت صورة أخرى... أقرب إلى الحلم، أبعد من الذاكرة. كان في المطبخ، يراقب عائشة من بعيد، طفلة بثوب أبيض، تحاول فتح علبة البسكويت. قدماها الصغيرتان ترتجفان وهي تتسلّق الكرسي، وشعرها يتدلّى على عينيها، لكنها لا تتوقف. قالت:

"بابا... أنا أوكف، (أوقف).... ما أشتيك تساعدني."

لم يقل شيئًا. ظل واقفًا، مسلوبًا بين رغبته في أن يضحك... وخوفه من صورته تنكسر. وحين سقطت العلبة من يدها... انتثرت الحبات على الأرض كأحلامه. توقعت أن تصرخ أمها، أن يُغضب والدها، لكنها فقط نظرت إليه.

"أوه. آثفه!" (آسفه).

قالت بصوتٍ خافت، كأنها تقيس مساحة الغفران في عينيه. أراد أن يركض نحوها، أن يحملها، أن يقول:

"لا، يا بنتي... أنا مش زعلان. أنا خايف تتعوري بس."

لكنه... لم يقل. عاد لغرفته. أغلق الباب. وتركت هي البسكويت متناثرًا...

أخذت دميتها... وربما خافت. كان يسمع أنفاسها تبكي، لكنه أقنع نفسه أنها تتدلع، أن الأطفال لا يحتاجون أكثر من لعبة، وأن التعاطف يمكن أن يُؤجَّل. ومنذ ذلك اليوم، تعلّمت ألا تلعب أمام والدها.

❊ ❊ ❊

٢٠

أمسك مساوئ الحشرة تحت بنطاله. عفص جسدها الصغير بقبضة يده، ثم هزّ قدمه، ووجّه نحوها ضوء الفلاش. كان تشظّي جسدها المهشّم يشبه تمامًا تهشيم روحه. أطفأ ضوء الفلاش. ثم يعود... صوت (يسلم)، عميق، بعيد... لكنه حاضر أكثر من أي وقت:

"لم تكن تُؤخَذ، يا مساوئ... كانت تُحَب."

نظر مساوئ حوله. الغرفة هي هي، لكن الهواء صار أثقل، والجدران تضيق، والبندقية تراقب من الزاوية كأنها شاهدة على كل شيء. همس، وكأن قلبه ينهار:

"يا عائشة... أنا ما كنت أقدر، ما كنت أعرف كيف أتعامل مع براءتك؛ لأن أحدًا لم يعلمني... وإذا كنتِ انتظرْتِ، فأنا... تأخرت. وربما... تأخرت إلى الأبد."

❊ ❊ ❊

٢١

كان يسلم، رغم ابتسامته الدائمة، يحمل في داخله خيبة لا يراها أحد. في كل صباح، يخرج مبكرًا، يحمل ابنه على ظهره إلى المدرسة، ثم يتجه إلى دوامه في مدرسة أهلية يدرّس فيها الرياضيات، قبل أن يعود ليقود الباص ساعات إضافية. الراتب لا يكفي، والحياة في عدن، صارت تُدار بالعملة الصعبة. لكنه لم يكن يشتكي من التعب. بل من شيء آخر: زوجته.

امرأة تصحو متأخرة، لا تطبخ، ولا تغسل، تجلس بالساعات تمضغ القات في الجلسات النسائية، وتدخن الشيشة دون اكتراث للوقت. كانت تهينه إذا تحدث عن تعب يومه، ترد عليه بضحكة سمجة:

"خلاص... لا تشتغلش. موت وخلصنا."

في أيام كثيرة، كان يعود إلى المنزل فلا يجد حتى كوب شاي. وفي قلبه... شوكة.

جنات، كانت تسكن في البيت المجاور. هادئة، أنيقة، لا تُسمع لها كلمة في الشارع. تُحضّر لابنتها الفطور في الصباح الباكر، وتُخرج النفايات بيدها، وتنشر الغسيل قبل الظهيرة. في أعماقه، كان يسلم يراها النموذج الذي حلم به يومًا. لكنه لم يتجرأ على الإفصاح... إلا مرة.

❊ ❊ ❊

٢٢

في ظهيرة خانقة، كان يقود الباص، وقد جلس مساوئ خلفه، قنينة الغاز تتدحرج تحت قدميه. من محطة الغاز في العريش، إلى حي معسكر عشرين، كان الطريق طويلاً، لكن كلام يسلم كان أقصر من أن يُقال... وأثقل من أن يُنسى. قال، وهو يرمق صورة زجاجية صغيرة تتدلى من المرآة:

"يا خي أنت عادك معك زوجه تطبخ! أنا لو روّحت الآن، زوجتي عادها نائمة... ما تصحى إلا العصر. ولما خلفت لي، جابت لي اثنين... واحد معاق فوق الكرسي، والثاني... ما يعرف يقلي بيضة!"

ثم سحب نفسًا من سيجارته، وتنهّد:

"ما أخفيش عليك... كان نفسي ببنت تنفعنا."

لفّ دورة كاملة في جولة ريجل، تجاوز شاحنة، ثم نظر في المرآة... رأى عيني مساوئ، ولم يُحوّل بصره:

"تصدق؟ والله... معك زوجة (كذا)." رفع خنصره، كما يفعل اليمنيون عندما يتحدثون عن شيء راقٍ أو ثمين.

مساوئ لم يرد. لكن عينيه كانتا كمن ابتلع شوكة. لم تكن تلك المرة الأولى التي يلمّح فيها يسلم، لكنه في ذلك اليوم قالها صراحةً. منذ تلك اللحظة، انغرست في قلب مساوئ بذرة لم يكن يحتاجها... الشك.

❊ ❊ ❊

٢٣

نهض مساوئ من مكانه، خلع بنطاله، وأخذ سترةً قطنية من فوق السرير. قرّبها من أنفه ليتفقد رائحتها. كانت نتنة، لكنه لم يتأفف. ارتداها، ولفّ طرفيها حول خصره، ثم عقدهما، كأنما يلفّ جنينًا خرج توًّا من رحم أمه. كانت الغرفة تستعد لاستقبال زائرٍ آخر. من إحدى الزوايا، حيث تتداخل الظلال مع وهم السكون، جاء صوتٌ ناعم... مألوف، لكنه مثقل بشيء يشبه الفضول المسموم:

"مرحبًا، مساوئ... كنتُ أعرف أنك تفكّر!"

رفع رأسه بتثاقل، وجهه متحجّر، كمن لا يريد أن يُرى. ردّ، بصوت بارد:

"هذا الأمر لا يخصكِ... لا يخص أحدًا."

تقدّمت "فضول" نحوه ببطء، تفوح منها رائحة شايٍ ملبن، وخلف خطواتها... بقعة سوداء، تكبر... لا تذوب.

"مساوئ، أرجوك... أنت تعلم أنني هنا لمساعدتك."

صمت للحظة، ثم قال بسخرية مريرة:

"أيش تعملي هنا؟"

قالت بصوت حذر، كمن يخفي شفرة بين الكلمات:

"أنا صحفية... جئت لأفهم قصتك!"

ابتسم، كأن شيئًا فيه انكشف فجأة:

"آه... يعني اسـمك (فضـول)، وعملك صـحفية. داخلة تنبشـي أسراري."

عضّت شفتها، كمن شعر بجرحٍ في صوت الآخر. لكنها تماسكت، لا تريد أن يراها تضعف.

"أوه، مساوئ... أنت تُسيء الظن بالنساء. كنت أعرف.... لكنني لم آتِ لفتح ملفات قديمة، فقط لأعرف ما دار بينك وبين ذلك الرجل الذي كان معك قبل قليل."

أدار وجهه بعيدًا عنها، عيناه تمتلئان بشـرودٍ كثيف، وغضـبٍ دفين، صـوته خرج كخيط ممزق:

"لا شـيء... لا أحـد يعرف شـيء، كـان مجرد زائر. توقفي عن استجوابي... مثلما يفعل شِلْنْجِن."

أومأت برأسها، وكأنها تعرفه. ابتسامتها غامضة، تتراقص على شفتيها:

"أوه، غريـب، ومـألوف... طيـب. لا أريـد البقـاء، لكن قـد أعود... وعندها بس... بتعرف، أنني كنت أعرف."

❊ ❊ ❊

٢٤

أغمض عينيه... والظلمة، للمرة الأولى، شعرت بأنها... تعرفه. ذهب بعيدًا في الذاكرة... ثلاثون عامًا مضت، لكنها لم تبتعد كفاية. عاد طفلًا صغيرًا في البيت القديم، في حي الطويلة. هناك... كان أبٌ لا يعرف الرحمة، وصوتُ صراخه أقرب إلى صفّارة إنذارٍ لا تتوقف. كلما أخفق في شيء، كلما كسر كوبًا أو تأخر عن نداء، كانت الضربات تهوي عليه... بلا حساب، بلا توقف، بلا رحمة. لم يكن يفهم حينها لماذا. كان يظن أنه يستحقها. لكنه اليوم يعرف: كان ضحيته. كان والده يفرغ فيه غضبه... تمامًا كما أفرغ هو غضبه لاحقًا في عائشة.

جلس الطفل في زاوية الغرفة، ظهره إلى الجدار، أضلاعه ترتجف، لكنه لا يبكي. تعلّم أن البكاء... دعوة مفتوحة للمزيد من الضرب.

"كنت أختبئ في صمتي، تمامًا كما جعلتُك تختبئين في صمتك، يا عائشة."

عندما كان والده ينهره لأبسط خطأ، كان يقتنع أن الرحمة ضعف، وأن القسوة... منهج تربوي. ترسّبت تلك الأفكار في رأسه، مثل صدأ في مواسير القلب. نمت داخله... حتى صار يؤمن أن القسوة ميراث. لم يكن يدرك أن هذا الميراث نفسه، سيقوده إلى هدم كل شيءٍ جميل. كما ورث القسوة من والده... أورثها، دون أن يشعر، لعائشة.

بعد ثلاثين عامًا من الهروب، كان "مساوئ" ينام فقط... لينسى. لكن هذه المرة، جاءه صوتٌ مألوف، همسٌ ناعمٌ أيقظه كنسمةٍ في ظهر الغضب:

"مساوئ... انهض... لازم توصل بنتك المدرسة."

فتح عينيه على عتمة رمادية. الغرفة لم تكن بيتًا... بل كانت مصحّة، باردة كالثلاجات التي تحفظ الذكريات الفاسدة. لم يجد جنّات. صرخ:

"جنات...؟ فين عائشة؟!"

هرع نحو الباب، يداه ترتعشان، صرخ بجنونٍ يشبه صدىً قديم من زمن الطفولة:

"افتحوا الباب! لازم أوصل بنتي المدرسة... افتحوا الباب يا مجانين! افتح يا شِلْنْجِن!"

فجأة... تجمّد. صوته خفت، عيناه اتسعتا، كأن شبحًا نزل من السقف. سمع صوتها. صوتها... عائشة.

"بابا... لا تخوفني..."

الصوت كان مختنقًا، محمّلًا بماء الدمع وملح الخوف. وتذكّر. ذاك الصباح. كانت جنّات قد أيقظته:

"مساوئ... قُم، لازم توصل عائشة المدرسة."

لكنه لم يفتح عينيه، بل فتح أبواب الغضب. انفجر. بصراخ، بكلمات غاضبة مشوّهة، ثم... ضربها. نعم... ضربها بعنف، لأن النوم عنده كان مقدّسًا، ولأنّ اللاشيء في قلبه كان أثقل من حبهم. انحدرت عيناه نحو الحائط، وهمس

لنقوشه المتآكلة:

"لا... لا يا عائشة، أرجوكِ. ما كان هذا السبب. كنتِ تعرفين ما كان قصدي... انتظريني، باخذك المدرسة، باخرجك من هنا معي..."

عاد يضـــرب الباب، هذه المرة... ليس ليُفتح، بل لينهار. كان يحاول تحطيم الجدار بينه وبين الماضـي، بينه وبين عائشـة، بينه وبين نفسـه، صـوته... بكاء رجلٍ لم يختبر يومًا الحب.

"لو أقدر أرجع... لو بس أقدر أصلح..."

"لو كنتُ أبًا صالحًا... لو كنتُ رجلًا تستحقه، رجل يوصل ابنته إلى المدرسة!"

لكن الباب لم يُفتح.

ولا الجدار انشقّ.

فقط... بقي (مساوئ)،

رجلًا تأخّر كثيرًا عن الموعد.

❊ ❊ ❊

٢٥

عائشة، في تلك السنوات، كانت تكبر داخل قفصين. الأول: جدران المنزلٍ، حيث تئنّ بالخوف والتهديد. الثاني: جدران المدرسة، حيث شعرت أنها كائن غريب، لا يشبه أحدًا. كانت تسير كل صباح بخطى بطيئة نحو المدرسة، تحمل حقيبةً ثقيلة؛ لا بالكتب فقط، بل بهمومٍ تكبر معها... لا تجد لها مخرجًا. داخل الفصل، كانت الزاوية البعيدة ملاذها. تجلس هناك، محاطة بصخب الأطفال، الذين يضحكون كأن الحياة لم تخذلهم أبدًا. أما هي، فكانت كمن يراقب من خلف زجاجٍ صامت، ترى، تسمع، لكنها لا تجرؤ على العبور. كل ضحكة تسمعها... كأنها سكينٌ صغير، يُمزّق شيئًا من روحها.

أحيانًا، كانت تظن أن والدها يقف خلف الفصل. يحدّق بها. وتسمع صوته، حتى لو لم يكن هناك:

"عائشة... لا تجالسي الغرباء. لا تتكلمي. البنت الشاطرة ما تضيع وقتها في اللعب!"

كانت تهمس، محاولةً أن تشرح:

"بابا... بعض أحيان أشتي ألعب معهم بس..."

"مافيش بس... البنت الشاطرة... تسمع كلام أبوها!"

كانت الكلمات حبالًا... تشدّها من كل الاتجاهات، وتتركها عالقة في ظلٍّ لا تخرج منه. لم تكن في عينيه "فتاة جيدة"، حتى لو أطاعته. حتى لو صمتت، جلست، كتبت، حفظت. كانت تخاف رفع يدها للإجابة، لا لجهل... بل خوفًا من السخرية، أو من الغضب إن رآها تتجرأ. في وقت الراحة، كانت تختبئ. تختار زوايا لا يراها فيها أحد، لا لتتمرد، بل كي لا تنكسر أوامر والدها. لم تكن تفهم لماذا... تكره نفسها. لماذا تبكي داخليًا، دون دمعة واحدة مرئية؟ لماذا تصمت... حتى حين تحترق؟ كانت تقول للعالم بقناعٍ شاحب:

"أنا بخير."

لكنها كانت تعلم...كل شيء داخلها يتساقط. والصمت، كان الردّ الوحيد... الذي تعرفه.

❊ ❊ ❊

٢٦

كانت عيناه معلّقتين بالجدار، وصـورة عائشـة تتلاشـى ببطء في العتمة. ثم ارتجف الصـمت. حركة خافتة... لهاث خفيف يشبه ركض فأرٍ ضـلّ طريقه، تسـلّل عبر فتحةٍ في الجدار، واندسّ تحت السـرير، كأنه جاء يبحث عن شيء... أو يدلّ عليه. نهض مساوئ من سريره، يترنّح بين الحلم والكابوس، لم يعد يعرف... هل ما يراه الآن، خارج رأسه... أم داخله؟

فتح الباب... رأى ممرًا، أنوار خافتة ترسـم على جدرانه ظلالًا تشـبه رجالًا تُصلب أرواحهم، وصـمتٌ كثيف... صـمت يحمل في طيّاته موتًا مؤجّلًا. بدأ يسـتعد. لكن لأي شـيء؟ لا يدري. هو فقط يريد أن يملأ هذا الفراغ الذي يمضـغ قلبه. عقله يطوف في دوائر مغلقة، كل فكرة ترتطم بالجدار كطائر سجين. وفجأة... عند باب أسود في نهاية الممر، ظهرت. ابنته.. أو ظلها.. أو ذنبُه، متنكرًا في وجهها. لم يلتفت. ظنّها خيالًا، ككل المرات.

"أباه... عن أيش تبحث؟"

كان صوتها نسمةً تهبّ من داخله، نداءً هادئًا، لكنه زلزل أعماقه. التفت إليها، كمن يرى شبحًا، أو ملاكًا تأخر كثيرًا.

"من متى وانتِ هنا؟"

"من لما رجعت من المدرسة."

مشى نحوها، خطواته ثقيلة... كأن الأرض تجرّه إلى أسفل قبره.

"هل ذهبتِ وحدك؟"

"نعم، يا أباه... لا تقلق."

حاول أن يبتسم، لكن ملامحه لا تعرف هذا الفعل. جلس، وضع رأسه بين كفيه، وتمتم كمن يرثي نفسه:

"كنت أعلم أنك لا تحتاجينني... ليتني متُّ قبل أن أقتلكِ!"

جاء صوتها، ليس كصوت ابنة، بل كرسالة من ما بعد الحياة:

"لو لم تقتلني، لما استطعت أن أتحدث معك... أنت حررتني من سجني، ووضعت نفسك في آخر. تعالَ، يا أباه... اخرج."

كانت كلماتها نوافذ مفتوحة على جحيمه الداخلي. كل ذكرى، كل نظرة خوف، كل لحظة صمت... خرجت من الظلال، ووقفت في وجهه كأشباحٍ لا تريد المغفرة، بل المواجهة.

❊ ❊ ❊

٢٧

في استرجاعٍ حاد، رأى نفسه... الطفل الصغير، يحمل الحقيبة نفسها التي حملتها عائشة. كان واقفًا عند بوابة المدرسة، يختبئ خلف والده، قلبه صغيرٌ... لكنه كان يشعر وكأنه على وشك دخول ساحة إعدام. والده، بجسده الطويل وصوته الصلب، لم ينحنِ ليربت على كتفه.

لم يقل له: "ستكون بخير."

بل نظر إلى المعلم، بنظرة كأنها أمر عسكري:

"هذا ابني... عاقبه إن لزم. اضربه... ليصير رجلًا."

ابتسم المعلم... لكنها لم تكن ابتسامة، بل شفرة. ضحكة مشوبة بلذّة، كما يضحك الجزار على خروف صغير. منذ ذلك اليوم، تحوّلت المدرسة إلى كابوس متكرر. الجدران صارت كالأقفاص، والمعلمون جلادين ينهشون طفولته، باسم التهذيب. لم يكن التعلّم دربًا للمعرفة، بل طريقًا من الشوك، مفروشًا بالخوف والإهانات. كل سؤال كان خطيئة. كل خطأ كان يستوجب عصا. وكل تأخر دقيقة... يعني صفعة تُحفر في وجه الكرامة.

كبر مساوئ، لكن المدرسة لم تكبر في داخله. بقيت، كما هي، ندبة. كلما اقترب من بوابة مدرسة، حتى كأب، ارتجفت روحه. لم يكن قادرًا على إيصال عائشة. ليس كسلًا، ولا قسوة فقط، بل لأنه كان يرى نفسه يُقاد من

جديد... لا ابنته. كان يخاف أن تعيد هي الدور، أن تقف حيث وقف، أن تنظر إلى وجه معلم يبتسم بلسان أبيها. لذلك، حين طلبت زوجته منه أن يوصلها، انفجر فيه الطفل القديم... لا الرجل. الطفل الذي ضُرب أمام الصف، وصدّق أن الضرب هو التعليم. والآن، ينهار أمام الحقيقة: أنه لم يخرج يومًا من تلك المدرسة. لا يزال محبوسًا في حصة الطابور، في نظرة المدرّس، في جملة أبيه التي كانت أول صفعة روحية:

"اضربه... ليصير رجلًا."

وها هو الآن، أصبح رجلًا... لكن ليس كما تمنى. بل كما تنبأت الضربات. رجل يكرر ما خافه. ويدفع ثمن ما لم يختره.

❊ ❊ ❊

٢٨

طفولة مساوئ... كانت الزاوية المعتمة من حياته. كل عامٍ يمر، كان يتلقى هديةً على هيئة صفعة، وكلما كبر عامًا، ازداد نصيبه من العقاب. كان عمره ذنبًا، لا ميزة. وكل سنة تمر، تُثبت له أنه جاء إلى الدنيا ليُجلد لا ليُحتفل به. عندما بلغ العاشرة، كان أطفال الحي يتلقّون الهدايا، والشكولاتة، يحتفلون بعيد ميلادهم في دفء العائلة... لكن (مساوئ) كان يسير في أزقة الطويلة، تحت سماءٍ زرقاء، صامتة، يحمل طبق بيض بيديه، كما لو كان يحمل قلبه... مهددًا بالكسر في أي لحظة. رأى أصدقاءه يلعبون الكرة عند زاوية الشارع. ضحكوا، نادوه، قال أحدهم شيئًا مضحكًا، فحاول أن يضحك معهم، لكن شيئًا داخله بقي متجمّدًا... ليس من البرد، بل من ذلك الخوف القديم الذي يسكنه كلما اقترب من عتبة البيت.

"لازم أوصل قبل المغرب."

قالها في داخله مرارًا، كمن يفر من قدرٍ معلوم. لكن الكرة انطلقت فجأة، اصطدمت بقدمه، وطار الطبق... البيض تحطّم على الأرض، وصوت التكسر بدا كأن العالم انهار. ضحكاتهم خمدت. وحلّ الصمت... الجميع فهم. الجميع عرف ماذا يعني أن يعود طفلٌ إلى بيتٍ كهذا... فارغ اليدين. مشى إلى البيت بثقلٍ يُشبه خطوات المساق إلى المقصلة. كل خطوة كانت

تُقربه من الطوفان. فتح الباب، كمن يفتح باب الجحيم. لم يكن يجيد الكذب. لم يفكر حتى فيه. لم يكن يعرف الهروب، لأن الخوف كان أعمق من كل الحيل.

"أبي في الداخل."

همسها لنفسه... كمن ينذر قلبه بالعاصفة القادمة. وقف في منتصف الغرفة، قشر البيض لا يزال في ذاكرته... كل قشرة، شبيهة بحياته المهشمة. كان والده جالسًا، وجهه جامد، كجدارٍ لا يملك سوى الحقد.

"أين البيض؟"

سؤاله هادئ، لكنه مسموم بالغضب.

"سقط... وانكسر."

قالها بصوتٍ متكسّر.

نهض الأب فجأة. أمسك به من ذراعه. سحبَه كما يُسحب المذنبون. اقتاده إلى الحمام، حيث البرد، والرطوبة، حيث الجدران شاهدة على كل ما لا يُقال. لم يعد للكلمات مكان. لغة الألم تكفلت بالباقي. كل ضربة كانت خنجرًا، كل صفعة إهانةً لا تبرير لها، فقط لأنه طفل... وطفلٌ لا يجوز له أن يُخطئ.

لم يبكِ. لأن البكاء، في ذلك البيت، كان جريمة إضافية. جلس في الزاوية، جسده ينتفض، وروحه تكاد تنكسر. حينها فقط... خطرت له فكرة لا يجب أن تراود طفلًا: الموت.

"لو متّ... هل سيتوقف هذا؟"

"هل أخيرًا... سأرتاح؟"

لم يكن يخاف الموت، بل كان يخاف الحياة. لكن فجأة... فتح الباب، وظهر صوت مختلف. لم يكن لأبيه... بل لأمه. رأته جالسًا، مكسورًا. ركضت، احتضنته. لم يقل شيئًا، لم يستطع. لكن ذراعيها كانتا كنافذة يُطل منها النور. ذلك الحضن... كان أول دفء حقيقي يتذكره. ذلك الحضن أنقذه.

❊ ❊ ❊

٢٩

استفاق من ذكرياته، كما يُنتزع النائم من كابوس... لكن الغرفة حوله لم تتغير، لا تزال صامتة، كقبرٍ تُرك مفتوحًا عن عمد. ما عدا صوت فأر يبحث عن بقايا الجُبن. جلس على حافة السرير، يتنفس كمن يخرج من تحت الماء... ببطء... بخوف... كأن أنفاسه تحمل معها رماد حياته كلها. همس، لكن صوته كان أشبه بصفعة على وجه نفسه:

"لو كان أبي... أبًا بحق، لما صرتُ أنا... هكذا."

رفع رأسه، كأنما يبحث عن ضوءٍ يبرّره، فلم يجد.

"لو عرفتُ كيف يكون الأب حضنًا لا سوطًا، لكنتُ أنا الحصن لا الخوف، لكنتُ السند لا الجدار."

لكن الكلمات، تبخرت في الهواء الرمادي. لم تجد من يسمعها، ولا حتى قلبه. مضى زمن الإصلاح... تأخر الاعتذار. وبقي الجرح، ككدمة في الروح لا تزول. امتلأت عيناه بالدمع، حاول أن يمسحها سريعًا، لكنها سقطت... واحدة، ثم أخرى...

ثم انفتح البحر كله.

كان يبكي للمرة الأولى، لا على الماضي... بل على نفسه. يبكي لأنه فهم، ولأن الفهم- كما العزاء- لا يأتي إلا متأخرًا.

❊ ❊ ❊

٣٠

زارته امرأة غامضـــة. لم يرَ وجهها أول الأمر، لكن ظِلُّ ملامحها كان مألوفًا حدّ الألم، غريبًا كحلمٍ مكسور على رصيف الذاكرة. عيناها تشعّان بثقلٍ لا يُحتمل، كأنهما تنبشان روحه بحثًا عن شيءٍ دُفن حيًّا منذ زمن.

"من أنتِ؟"

قالها بصوت متلعثم، تائهًا بين نداء المعرفة وصفعة الذهول.

أجابت، بنبرة جامدة كحجرٍ لا حياة فيه:

"لا يهم من أكون... المهم ما أحمله إليك."

مدّت يدها نحوه، تحمل ظرفًا باهتًا، كأنه نُسج من غبار عقودٍ من الندم.

تردّد... كانت يده تُقاوم، كأن الظرف بحد ذاته جريمة ملفوفة بورق قديم.

فتح الظرف. ببطء... كمن يفتح نعشًا صغيرًا.

"كنتَ قاسيًا... ولم تُبالِ.

كنتُ أبحث عن الأمان فيك،

فوجدتُ خوفك يلبس قناع القسوة.

كنتَ جبانًا، يا مساوئ...

وستبقى كذلك.

قسوتك لم تكن قوة.

بل طريق هروب."

كانت الكلمات تنزف مرارةً خامًا. توقيعها في الأسفل...

"جنّات."

زوجته. التي صـــدّق أنه تركها خلفه، بينما الحقيقة... أنها لم تبرحه أبدًا. لم تكن الرسالة رجاءً. ولا طلب مغفرة. بل محاكمة. شعر بشيءٍ ينهار داخله، لكنّه لم يكن من الورق، كان من ذاته. أغلق باب غرفته، والســقف ينخفض فوقه ببطء، كأن الحياة تتحول إلى زنزانة تُغلق من تلقاء نفسها.

جلس في الركن، رأسه بين يديه، وحين رفع عينيه... رآها. جنّات. تتشكل من ظلال البقعة الســوداء في الجدار، كأنها خرجت من ندبة الزمن. وجهها غير واضح، لكن عينيها تشعان بيقينٍ قاسٍ، كمن يملك الحقّ بعد طول صمت.

"هل تظن أنني سأغفر لك؟"

قالتها كهمس عاصف. لم يستطع الرد. لم يكن يملك صوتًا. فقط رجفة في صدرٍ مكسور.

"أرجوكِ..."

همس بها، لكن حتى هو لم يُصدّق نبرة الرجاء.

اقتربت، بخطى بطيئة، كأنها تنتزع ما تبقى منه، قطعة... قطعة.

"أنت تقول ذلك الآن... لأنك لم تعد تملك شــيئًا. لكنني كنت هناك، حين اخترتَ القســوة. حين زرعتَ الصــمت بيننا، وادّعيتَ أنك تنقذني."

كل جملة كانت طعنة. لكنها لا تبحث عن دمه... بل عن اعترافه.

"لم تقتل عائشة فقط، يا مساوئ... قتلتني قبْلها. سجنتني في خوفك، وسمّيتني "العار".

أراد أن ينهض، أن يتكلم، أن يتشبث بأي كذبة... لكن جسده خانَه. ولغته ماتت.

جنّات الآن واقفة. ظلّها يشبه شبح الموت. لكن صوتها ناعم... ناعمٌ حدّ الانهيار. كلماتها تصطدم بجدران الغرفة، ثم تعود إليه... كالصفعات.

❊ ❊ ❊

٣١

وقف مساوئ، ينهار أمام صورة جنات، لكن الصورة التي خرجت من ذاكرته كانت صورته هو، عميقة ومباغتة، كأنها كانت تترصده في الظل، تنتظر لحظة الانكسار لتخرج... كجُرح قديم انشق فجأة على سطح روحه. كانت تحاصره من كل الجهات، كأشباح تتغذى على ظله، طفيليات زاحفة في كل زاوية من وعيه، تنهش سكونه، تصفعه بلقطاتٍ لا تهدأ، ضوضاء متواصلة لا يعرف كيف يُسكتها.

الطفولة؟ لم تكن مجرد ماضٍ، بل جدارًا من الطوب الرمادي بُني حول قلبه، لبنة فوق لبنة، ضربة بعد ضربة، حتى لم يعد يعرف كيف يُكسِر الجدار، كيف يحب، كيف يحضن، كيف يكون إنسانًا. وفجأة... تذكّر. المرأة. التي زارته البارحة، تحمل رسالة.

"من أنتِ؟" سألَها. "زوجتي؟ أم شبح ضميري؟"

لكن الصوت الذي ردّ، لم يكن منها وحدها، بل من أعماقه أيضًا:

"كنت جبانًا... وستظل كذلك."

كنيزكٍ اخترق صدره، لا ليُضيء، بل ليحرق.

جبان؟

هل كان كذلك حقًا؟

هل كانت قسوته درع خوف؟

هل كان كل هروبه... محض جبن مغلّف بالرجولة الكاذبة؟

أراد أن يصرخ، أن يرفض، أن يدافع عن اسمه، عن طفولته، عن جهله... لكن صوته خانه. كما خان كل من أحبه.

"كيف وصلتُ إلى هنا؟"

سأل نفسه، لكن السؤال لم يكن استفسارًا، كان إدانة.

"كيف أصبحتُ... مساوئ؟"

ولم يكن الجواب مهمًا، لأن السؤال ذاته كان الإجابة.

ثم... خطوات. تسـلّلت عبر الممر، هادئة، كأنها ليسـت لزائر... بل لوهم جديد، جاء ليعبث ببقايا سلامه الممزق. لم يعد يعرف، هل يريد لقياهم... أم يود أن ينزوي أكثر، في عقله المحموم، كجمرة لا تنطفئ.

"هل سأبقى حبيس هذه الأشباح؟

أم أن الخلاص ممكن؟

هل الغفران خرافة...

أم أن أحدًا لا يعرف كيف يبدأ؟"

لكن لا أحد أجابه. لا وجه، لا صـوت. فقط صـمت كثيف، كأن الكون نفسه... قرر أن يدير له ظهره.

❊ ❊ ❊

٣٢

في غرفة مستشفى (الشعب)، الإضاءة واهنة، كأنها تتنفس من رئتها الأخيرة، والهواء مشبع بصوتٍ... ليس صراخًا عاديًا، بل صرخةٌ تنفذ من الجلد إلى العظم، كأن الألم ذاته يئنُّ من فرط الوجع. كانت جنات ممدّدة على السرير، وجهها شاحب كقمرٍ في لحظة خسوف، كأن الحياة تغادره على مهل، بقطراتٍ، لا بنزفٍ.

"عائشة..."

نطقها، لا كنداء، بل كاعتذارٍ متأخّر، كمن يحاول الإمساك بطيفٍ لم يشهده أبدًا.

ثم، فجأة، صوت الممرضة يخترق الحلم كصفعة ماء بارد:

إذا ما سحبنا لها دم الآن، ستموت. مستعد؟

لم يكن سؤالًا... بل حكمًا. اتهامًا صريحًا في وجه رجلٍ مشلول بالعجز.

أراد أن يصرخ:

"خذوا دمي، كل دمي!"

أن يركض نحوها، أن يمسك بيدها، أن يكون، أخيرًا، رجلًا. لكن العجز شدّه من قدميه. الجدران تهتز، الزجاج يتحطم، والظلام يتسرّب من الزوايا... حتى ابتلع كل شيء.

ركض نحو الباب، طرقه بعنف، كل ضربة كأنها تطلب الغفران:

"افتحوا الباب! زوجتي بحاجة إلى دم! افتحوا!"

لكن لا أحد أجاب. الصوت ارتدّ إليه بصدى مُرّ، كأن الصدى نفسه يبكيه. سقط على الأرض، ضرب البلاط بقبضته، كأنها محاولة متأخرة لبناء حياة، لبناء كلمة: "سامحيني".

الدموع... ليست فقط ندمًا، بل غرقًا كاملًا. طفولة، شباب، رجولة هشة... كلها تنهار في تلك اللحظة. ثم... صوت. هادئ. مألوف. مثل طيف تعرفه من الرائحة، لا من الشكل.

"لا تقلق، يا مساوئ... لقينا حل!"

رفع رأسه، عيناه غارقتان في الذهول. كأنّ جسده يرتجف لا من البرد... بل من اعترافٍ قادم.

"حتى أنت؟ يا يسلم؟"

قالها كمن يرى صديقًا من زمنٍ غادره دون وداع، كمن يشكّ إن كانت روحه ترافقه أم تخونه. ابتسم يسلم، ابتسامة لا تُصنَّف:

فيها شيء من الطمأنينة، وشيء من تهكّم الحياة.

"الصديق وقت الضيق... مش كدا يقولوا؟"

كأنّ الزمن انكمش، واللحظة لم تعد قابلة للفهم. خيّم الصمت. وحده مساوئ كان يحاول، عبثًا، أن يربط الأحداث... أن يفهم، أن يجد سببًا منطقيًا لهذا الوهن.

❊ ❊ ❊

٣٣

تسللت قطة سوداء من النافذة وأطلقت مواءً، تجمد الفأر تحت السرير، لم يعد له صوت، أما مساوئ، فتسلل إلى سمعه مواء القطة، كصوت إنذار سيارة إسعاف. تسللت الذكرى إليه كلسعة بردٍ في عصب عارٍ. ذكرى أليمة... مرّت عليها اثنتا عشرة سنة، لكنها ما زالت تقطر وجعًا كلما مرّ بها ذهنه.

ربما كانت تلك اللحظة هي التي زرعت في أعماقه الوعي بالهشاشة والوهن، حين بدأ يفهم أن الحب لا ينقذ، وأن الأمل وحده لا يكفي للبقاء. كانت أمه... راقدةً في سرير المستشفى بعد حادثٍ مروّع. تتشبث بالحياة بأطراف أنفاسها، تنتظر الدم، تنتظر المتبرع. لكنها لم تجد سوى الخذلان. أما والده؟ جلس في زاوية الغرفة كتمثالٍ بارد، وجهه لا يحمل سوى فراغ متبلّد. لا خوف، لا دمعة، ولا حتى محاولة للتظاهر بالاهتمام.

حين وصل الخبر إلى مساوئ، ركض إلى المستشفى وقلبه يغرق في الرجاء، كأنه يبحث عن معجزة يعرف في قرارة نفسه أنها لن تأتي. سأل، بكى بصمت، توسل... لكن العالم ظلّ أصمًا. وهو، كما كان دومًا، وحده. رأى الحياة تتسرّب من أصابعها، كحليبٍ يُسكب من كأسٍ مكسور... ولم يكن بيده أن يُنقذها. كانت تلك أول مرة يعرف فيها المعنى الحقيقي للعجز. عجز لا ينساه.

حين لفظت أمّه أنفاسها، لم تكن النهاية... بل كانت بداية السقوط نحو هاوية لا قاع لها. وقف والده بجانبه، لا كأب، بل كجلادٍ يرتدي قناع عابس. عيناه جمرتان بلا نور، وصوته... قطعة ثلج مغروسة في الصدر:

"أمك ماتت بسببك... أنت إمعة يا مساوئ. ما تنفع لشيء... مجرد عالة تستهلك الهواء."

الكلمات لم تُضرب وجهه... بل جلدت روحه.

في تلك الليلة، لم يفقد والدته فقط. بل خسر معها كل ما تبقّى من دفء العالم. أراد أن يبكي، أن يصرخ، أن ينهار في حضنٍ ما... لكن حتى الباب الصغير، الذي كان في صدره... ذلك الباب الذي يُفضي إلى فكرة أنه يستحق أن يُحَب، أُغلق إلى الأبد.

❊ ❊ ❊

٣٤

فتح عينيه. لم تكن الغرفة كما كانت، ولا النوافذ كما يتذكرها.

رأى يسلم واقفًا عند البقعة السوداء في الركن، تلك البقعة التي ما عادت مجرد أثر على الجدار، بل بوابة لكل الذكريات المحطمة. رائحة الماضي ما تزال في الهواء، دافئة كالغدر... خانقة كالعطر في جنازة. حاول أن يتكلم، لكن صوته تكسّر، ودمعة وحيدة سبقت الكلام.

قال بصوت مشقوق من الداخل:

"تتذكّر... ليلة ولادة عائشة؟"

يسلم أومأ، وبين حاجبيه تردد يشبه الغصة:

"نعم... كنت أعرف. والأفضل لك الآن... أن تنسى... تنسى كل شيء حصل، وكل حدث فات عليه الأوان! لأني..."

صمت.

ثم قال:

"هناك شيء يجب أن تعرفه."

تجمّد الهواء.

كأن الغرفة ابتلعت أنفاسها.

قال يسلم، كمن يسلّم جثة اعترافه:

"أنا... تزوجت جنات. بعد طلاقكما بفترة."

سقطت الكلمة كرصاصة.

لم يجب. لم يتحرك. لم ينهَر. فقط... نظر إليه. بعينين تبحثان عن "لا"، عن تكذيب صغير... أي شيء.

همس داخله:

"أنا... طلّقت جنات؟!"

يسلم تراجع خطوة، كأن الذنب ثقيل حتى على قدميه.

"لم أخبرك، لأني ظننتك تجاوزتها. لكنها... خلعتك في المحكمة."

"جنات... يسلم... جنات..."

كانا يختلطان في رأسه كهمهمة خيانة، كصفعة تأخرت، كغصة لم تُهضم. ركض إلى آخر الغرفة، أغلق النافذة كما يُغلق نعشًا لا يريد رؤيته. ثم جاء الصوت. لم يكن صوت يسلم. ولا صوت جنات. كان صوته الآخر... صوت (مساوئ الموازي)، الذي يسكن في الجدار.

"ألم تكن تعلم؟ أنت من تركها. من الذي يستحق اللوم؟"

كان الصوت يشبه صفير نار تتلوى في كهف مهجور.

"لم تكن سوى ظلّ...

طيفٌ باهت... لا أحد يراك... ولا أحد ينتظرك."

وفي لحظة، سقطت جملة قديمة من ذاكرته، كأنها خرجت من دهليز منسي:

"كنت دايمًا تقول إنك ما تحبني... هل كنت تعنيها؟"

قالتها جنات، قبل أن تنهار علاقتهما. وصوتٌ آخر... أقرب. أنقى. أقسى.

"هل كنت تحبها يا أبي؟"

عائشة؟!

ارتعد قلبه.

"أنتِ هنا؟"

جاء صوتها هادئًا، لكنه كالنصل في الماء:

"نعم، كنت أعرف... كنت أعرف كل شيء. هل كنت تهتم بها؟"

سؤالها، بسيط. لكن وقع الكلمات... كان كاعترافٍ مكتوم ينتظر لحظة الانفجار.

همس، صوته أشبه بالبكاء:

"ليتني كنت... أنا أحبها... وأحبك."

لكن داخله سأل نفسه:

"متى قلتُ لجنات أني أحبها؟"

"هل جعلتها تشعر يومًا أنها مهمة؟ أنها كانت امرأة تُستحق؟"

الأفكار انهالت عليه:

الصمت الطويل، الوجه البارد، الكلمات المقطوعة.

وفي تلك اللحظة... عرف أنه لم يكن ضحية فقط، بل كان الجلّاد بصمته، والقاتل بتردّده، والخائن بجموده.

"لم أقل لها أبدًا... كم أحببتها."

كانت تلك الجملة، هي السكين الأخير الذي قطع آخر حبل ندمه. لكنه رغم كل شيء... ما زال يبحث عن مبرر. عن قشة. عن تفسير ينقذه من نفسه.

"لماذا لم أكن رجلاً يعرف الحب؟"

❊ ❊ ❊

٣٥

"كان الحبّ أوهن من بيت العنكبوت."

قالها مساوئ في نفسه، وهو يرمي سيجارته نحو خيوط العنكبوت التي نسجت ظلّها في زاوية الغرفة.

أشعل أخرى. ومع كل نفَس، ينفتح باب في الذاكرة، يفضي إلى ممر طويل من سنوات شبابه الأولى. هناك، عند المرآة، وقف فتى في الخامسة عشرة، يفتّش في وجهه عن دليل على أنه يستحق أن يُحَب. لمس شعره بتردّد، عدّل قميصه الرخيص، ونظر إلى انعكاسه كما ينظر مسافر إلى نافذة قطار لا يعرف وجهته. دخلت أمه في تلك اللحظة، تحمل بيدها كوب شاي وتبتسم بحنانٍ يشبه الدعاء:

"تبدو وسيمًا يا ابني... شكله قلبك بدأ يحب!"

كلماتها سكنت روحه، كأنها منحت قلبه المجروح وسادة دافئة. أراد أن يبتسم، أن يرد بكلمة، لكن لم يمهله القدر. دخل والده، وجهه عاصفة. كان يحمل معه قسوة الأيام، وصوتًا لا يعرف إلا التوبيخ.

"حب؟! من قال إنك خلقت للحب؟"

ثم نظر إلى مظهره، إلى تلك اللمعة في عينيه، وقال كمن يطعن لا يوبّخ:

"شعرك؟! ثيابك؟ أنت مفكر نفسك فنان؟ شاعر؟"

"انزل البلاعة، افتح السدة... مكانك هناك!"

ثم... دفعه. دفعه إلى خارج البيت، إلى حيث تتجمّع المياه الآسنة في فناء الحي.

غاصت قدماه في الوحل، امتزجت رائحة المجاري بصوت والده الذي كان لا يزال يصبّ شتائمه عليه من الشرفة، كما تُلقى القمامة من علٍ.

"ولد لا يستحي... الحب؟! سأقتلك إن سمعتك تقولها مرة أخرى."

منذ ذلك اليوم، صار الحب لعنة. صار الضعف الذي لا يجب الاقتراب منه.

وحين عاد إلى غرفته تلك الليلة، لم يعد كما كان.

كتب. كتب كما لم يفعل من قبل. كانت القصائد تتفجّر من قلبه مثل طين يشتعل تحت الرماد. كتب عن الحب كما يتخيله، كما يتمنّاه، لا كما عرفه في بيت لم يكن فيه شيء سوى الصمت والعنف. واختار إحدى قصائده ليشارك بها في مسابقة شعرية نظمها الحي. رشّحه الأصدقاء، دفعوه ليكون صوتهم، شاعرهم... حلمهم. في الليلة التي سبقت المسابقة، كتب القصيدة الأخيرة، تلك التي كان يظن أنها ستنقله من العتمة إلى الضوء.

لكن... دخل والده، في تلك اللحظة. وبقلبٍ ممتلئ بالاحتقار، أعطاه أمرًا:

"روح اشتر لي دواء، واسمع... لا تخطئ."

ذهب. اشترى الدواء، لكنه أحضر البديل. عاد، وضعه، وسحب نفسه بهدوء إلى غرفته، ظنًا أن العاصفة مرّت. لكنها لم تكن إلا تنتظر. اقتحم والده الغرفة، يمسك بسلكٍ كهربائي، وبدأ يضربه، ليس لأن الدواء خطأ... بل لأن

في عيني مساوئ حلمًا.

ثم... أخذ أوراق القصيدة. أشعلها. وراقبها تحترق، كما لو أنه يحرق ابنًا لا يريد أن يرى فيه شاعرًا أو إنسانًا.

ثلاثة أيام في الغرفة. لا ضوء، لا صوت، لا طعام. إلا رماد تلك القصيدة في قلبه. ومنذ ذلك الوقت، لم يكتب. ولم يحب. ولم يثق بأن الحب قد يُصلح حلمه المكسور.

❊ ❊ ❊

٣٦

بينما كان قابعًا في تلك الغرفة الكئيبة، أطفأ آخر حبة سيجارة، كأنها الطلقة الأخيرة في حربه ضد نفسه. جلس يحدّق في الباب، ينتظر... فضول. لم يكن يريد غفرانًا. ولا حتى فهمًا. كان يريد فقط أن يُخرس الأصوات التي تسكن رأسه منذ الطفولة.

عندما جلست أمامه، لم يرَ فيها صحفية، بل مرآة مكسورة يرى فيها نفسه، على مراحل. ظهره كان محنيـًا، وصوته مترددًا بين الحذر والرغبة.

قال:

"إذا كنتِ جايّة تُدوِّني قصتي... فأنا أقدّم لكِ حكاية مشوّهة من البداية. ما عنديش بداية واضحة، ولا نهاية مرضية. بس تفضلي... اكتبي."

رفعت فضول قلمها، لكن ما دوّنته أولاً لم يكن حرفًا، بل صمتًا يُنصت.

قال:

"كنت أحلم أكون شاعر. أول قصيدة كتبتها... حرّقها أبوي."

قال لي:

"الرجّال ما يبكوش، ولا يكتبوا كلام بنات".

ابتسم، ابتسامة فيها وجع لم يُغفر:

"من يومها قررت أكتب كل شيء بدم... مش بحبر."

أسند رأسه لجدار الذاكرة، وتابع:

"أمي ماتت... وأنا كنتُ أَجري لأُنقذها، صَـحتُ... لكن ما أحد سمعني. وأظن لليوم، صوتي ظل محبوس هناك."

سألته فضول، بنبرة حذرة، لكنها مشبعة بالصدق:

"تحاول تنتقم من ماضيك؟"

ردّ بهدوء:

"لا. أحاول أفهم: ليش أنا النتيجة؟ ليش كل قراراتي مش اختيارات؟ كأن في شخص ثاني داخلي... يسبقني دايمًا لفعل الغلط."

توقّف قليلاً، وعيناه تتوهجان بندم:

"أنا ما قتلت عائشة... لكنّي قتلت "اللي كانت ممكن تصير". نظرتها لي تغيّرت... من يوم سمعتني أصرخ على أمها. وما قدرت أرجّع النظرة الأولى."

قالت فضول:

"وأنت؟ هل تغيّرت؟"

ضحك، ضحكة منهكة:

"أنا؟ أنا مزيج من خوف أمي، وغضب أبي، وصمت شوارع عدن بعد الحرب. مشيت في طرق لم أخترها، مثل مدينة لم تختر

الحرب، لكنها تدمّرت بسببها. اسمي "مساوئ" لأنهم لم يعطوني فرصة أن أكون غيره. أنا لُغم انفجر في وجه الحياة... لأن أحدًا لم يمنحني خيار أن أكون إنسانًا."

همس في نهاية اعترافه:

"لو كتبتِ عني... اكتبي إني كنت مشروع سلام... واتلغى."

وقفت فضول. لن تجد ما يُقال. وبعد صمت نظرت إليه، وقالت:

"أنا آسفة."

خرجت، وتركتْه. أدركت أنه ليس بحاجة لمن يسمعه... بل لمن يصدّقه. لكن مساوئ لم يشعر بالراحة. بل بالخيانة. كأنها، مثل الباقين، جاءت واختفت. لم تكن المشكلة فيهم... بل فيه. هو... لم يعد يصدّق حتى نفسه.

ترددت الأسئلة داخله كأمواج لا تهدأ:

"من أنا؟ وين أنا؟ متى أعود؟"

ولم يعد يعرف... هل هذا صوته، أم صدى ندمٍ لا نهاية له!

أغمض عينيه. وسأل نفسه، بصوتٍ خافت كمن يستجوب روحه:

"هل أخطأت... عندما تحدثت إلى فضول؟"

"ربما كنت على حق لما ما فتحت لها قلبي..."

كان يحاول أن يُقصي صورتها عن ذهنه، لكن وجهها لا يغادره. عيناها، كلماتها، وحتى رائحتها التي تشبه الياسمين المُرّ.

❊ ❊ ❊

٣٧

في ليلة لم تكن استثنائية في عدن، لكنه كان استثنائها الوحيد. فضول لم تنوِ النزول في ذلك الوقت، كان الليل أثقل من أن يُقابَل بخطى عابرة، لكن صوتًا في داخلها، يشبه الحاسة السادسة، جعلها ترفع عينيها نحو الرصيف المقابل، حيث مراهق صغير يتكور كطفل فقد الدفء.

"لماذا شعرتُ أنني أعرفه؟"

تساءلت وهي تنزل من سيارة حمراء، نوع "سنتافي". تجرّ عباءتها السوداء في مواجهة ريحٍ لا يعرف الرحمة.

رأته قبل أن يراها، وللحظة، أحسّت أنها تقترب من جرح لا يريد أحدٌ لمسه.

توقفت أمامه كمن يتردد بين الاقتراب والعبور، ثم قالتها... الجملة التي لم تكن مجرد سؤال:

"هل أصابك شيء؟"

لم تكن تنتظر منه إجابة، كانت تنتظر أن يعترف للهواء على الأقل أنه تعب. لكن الصمت كان سيد اللحظة. ذلك الصمت الذي فهمته جيدًا. صمت الموجوعين الذين لا يريدون إنقاذًا، بل حضنًا لا يسأل.

راقبته وهو يتهرب من عينيها، كأنّ قربها يكشفه أكثر مما يريده. ورغم رفضه... لم تشعر بالإهانة. بل شعرت بأنها دخلت للتو إلى قلبٍ مهجور،

وأن هذا اللقاء، رغم بروده، لن يُنسى.

صــعدت إلى مكتبها، لكنها لم تنشــغل بكتابة تقرير أو مراجعة قصــة. كل القصص أصبحت ضبابًا، عدا قصته هو... التي لم تُكتب بعد.

❊ ❊ ❊

٣٨

فضــول، المرأة التي كانت تبدو في الظاهر قوية كصــخر، كانت في الداخل مجرد أنثى تبحث عن معنى. في الثلاثين من عمرها، وقد مرّ بها من الخيبات ما يكفي لتكتم ضــحكتها حتى في لحظات الانتصــار. عملت لســنوات مع منظمات دولية، ســافرت، كتبت، حاورت رجالاً كبارًا في السـياسـة والمال، لكنها في كل تلك الرحلات... لم تجد أحدًا ينظر إليها كما كانت تحلم. كانت الوحيدة لوالدتها، تعيش في بيت ورثته عن جدها في (خور مكســر)، منزل فســيح لكنه حار، كأن الجدران فيه تعرف الحنين، أكثر مما تعرف الأنس.

لم تكن تثق بالرجال. لكنها كانت تؤمن بالحدس الذي يطرق القلب فجأة. حين رأت مساوئ لأول مرة، لم يكن في موقف بطولي، بل كان مجرد فتى... يجلس على رصـيفٍ في (الشـابات)، وجهه غارق في صـمته، وعيناه تتأملان المارّة وكأنهما تتوســلان للزمن أن يمرّ أســرع. وحين ينفرد بنفســه، تختفي ملامح المراهق، ويظهر رجلٌ صـغير يحمل خيبته كمن يحمل لغمًا في جيبه. لم تكن تعرفه. لكنه شـغلها. كان شـيءٌ فيه يشـبه الفراغ الذي لم يملأه أحد. راقبته مرارًا من بعيد. رأت في عينيه لمعة حزينة، خاملة، لكنها كانت تومض كنداء من غريق يريد من يســمعه، لا من يُنقذه. أحبت صــوته، وهو يتردد في الكلام. أحبت تردده، لأنّه لم يكن وقحًا، بل خائفًا. أرادت أن تصــطفيه

لنفسها... أن تمنحه سقفًا، صوتًا، ملاذًا. تخيلته كثيرًا في لياليها، يمر بجوار شرفة منزلها، يطرق الباب لا لمصلحة، بل لمجرد الجلوس. أرادت أن تسكب له قهوتها، وتسمع منه لا لأجل مقال، بل لأجل أن يفرّغ ما في قلبه.
انتظرته. انتظرت أن يفتح بابًا، أن يطلب عونًا، أن يعود إليها. لكنه لم يفهمها. ربما لأنه صغير. أو لأن الألم في داخله... أكبر من أن يسمح له بفهم الحب حين يأتي. ظن أنها مجرد صحفية تريد قصة. فأعطاها نصف جملة، ثم اختفى. لكن... هي لم تختفِ.
كانت تعرف أن له أبًا يعيش في (الطويلة). ذهبت إليه، لا لأنها توقعت المعجزات، بل لأنها آمنت أن الخير حين يُلقى في الماء... لا بد أن يعود، ولو متأخرًا. طرقت بابه، وحين فتحه، رأت في عينيه صلابة صخرٍ لا يعرف الدمع.
قالت له بنبرة هادئة، لكنها مشبعة برجاءٍ مكسور:

"ابنك لا يستحق أن يعيش بهذه الطريقة... كل إنسان يملك في داخله بذرة خير. وقد لا يكون الوقت الآن مناسبًا للضغط عليه."

ثم أخرجت ظرفًا بداخله مبلغًا من المال.
لم يكن كثيرًا، لكنه كان كافيًا.
وقالت:

"استخدمه كما ترى... ساعده، احتوه، درّسه... على الأقل، لا تتركه يبتعد أكثر. أخذ الأب المال دون أن يرمش، ثم أغلق الباب."

كانت تتوقع أن يتصل بها، ويقول:

"شكرًا." أو حتى: "آسف، لم أكن أفهم."

لكنه لم يتصل. وفي صباحٍ يشبه بقايا حلمٍ انقطع قبل أن يكتمل، عادت "فضول". بحثت عنه في الطرقات المكسورة، بين الأرصفة المتآكلة والمقاهي التي لا تحفظ أسماء الزبائن، حتى وجدته... في الزاوية ذاتها، كأنه لم يغادرها أبدًا، كأن الليل ما زال مُعلّقًا عليه. كان جسده هناك، لكن عينيه في مكانٍ آخر... بعيدتان، كما لو أنه ألقى بهما في بئرٍ ونسي الطريق.

اقتربت. هذه المرة لم تسأله إن أصابه شيء، بل جلست إلى جواره، وجلست بصبر امرأة تعرف أن الجروح لا تلتئم بالكلمات بل بالوجود الصامت. قالت له بهدوءٍ يليق بجناح طائر مبلل:

"وجدت لك عملًا بسيطًا... مؤقتًا، لكنه شريف."

ثم أضافت، وهي تُخرج ورقة مطوية من حقيبتها:

"ولو أردت، يمكنني تسجيلك في الجامعة... سأتحمل التكاليف كلها. لا داعي لأن تشكرني، فقط... لا تبقي مجددًا في الشارع إلى منتصف الليل. سأوفر لك مكانًا آمنًا تنام فيه."

كان قلبها يقف هناك، على حافة الجملة الأخيرة. كأنها تراهن على الأمل الذي لم يولد بعد في عينيه. لكنه لم ينظر إليها. بل ضحك... ضحكة قصيرة، مكسورة، كأنها تسخر من الفكرة ذاتها. ضحكة شاب يعلم أنه لم يُخلق ليُنقَذ، بل ليُنسى بهدوء.

قال شيئًا مبهمًا...

ربما "شكرًا" أو "لا" أو "كفى".

ثم أشاح بوجهه عنها، كما يبتعد المرء عن مرآةٍ تُخبره بما لا يريد أن يعرفه.

لم تتذمر. كانت تعرف أن من يتكوّر من الداخل لا يقف منتصبًا من أول محاولة. نهضت ببطء، تركت الورقة إلى جواره، وقالت بهمسٍ:

"لو غيّرت رأيك، أنا هناك... الطابق الثاني، الضوء الأصفر."

ثم مضت. لكنها لم تذهب بعيدًا.

بعد أيام... حين ظهر مساوئ في زقاقٍ ركنَ بالعيدروس، كان والده بانتظاره.

لم يكن يحمل دفئًا، ولا اعترافًا، بل عصًا.

صرخ فيه:

"كيف تتجرّأ تشحَت فلوس من امرأة؟ صحفية جت لعندي! قالت إنك طلبت منها فلوس؟! أنا ربيتك لتكون شحّاذًا؟! يا حقير!"

ثم رمى عصاه في وجهه.

لم يردّ مساوئ. لم يكن يملك لغةً للرّد، كل اللغات في داخله كانت مكسورة.

ركض. هرب كمن يحاول الفرار من ماضيه، من جلده، من اسمه. ركض تحت أنظار المارّة،

وعلى جانب الرصيف، كانت سيارة "فضول" مركونة.

رأته يركض... ركضه لم يكن ليلحق بشيء، بل ليفرّ من شيء. دموعه... كأنها

تبحث عن أمّ، ولم تجد إلا الشـــارع. كانت تريد أن تركض خلفه، أن تهمس باسمه.

لكنها بقيت داخل السيارة. لم تكن تعرف... هل أحبّته؟ أم فقط رأت فيه آخر فرصها في أن تمنح قلبها ما يستحقه؟ كل ما كانت تعرفه، أنها كانت مستعدة لتعطيه عمرها... لكن مساوئ، كان أصغر من أن يفهم. وأكبر من أن ينتظر.

❊ ❊ ❊

٣٩

تحرك الفأر من جديد في الغرفة بعدما أحس بالأمان، لكن مساوئ كان قد رأى الغرفة قد تحوّلت إلى صندوق ندم محكم الغلق. الأشباح من حوله، لا تهدأ، كل فرصة أفلتت، كما أفلتت تلك المرأة. كل نجاة مؤجّلة، كل خيط ضاع في هواءٍ معتم كالرئة الأخيرة لحلمٍ يحتضر.

رفع عينيه إلى السقف، وهمس لنفسه كمن يحاكم ماضيه:

"حاولت... حاولت أكون رجل... لكن النتيجة؟ فقدتُ كل شيء... حتى نفسي."

كان (شِلْنْجِن) جالسًا قربه، كعادته، كأن الزمن يعيد المشهد ذاته... صديقان لا يجمعهما سوى الخسارة. تدفقت الذكريات أمام عينيه كفيلم مشروخ، يعيد نفس النهاية... نهاية رجل يقف دومًا على حافة الفعل، ثم يتراجع.

رأى نفسه مرة تلو الأخرى... كان بإمكانه أن يصرّح، أن يعانق، أن يبوح. كان يستطيع أن يربّت على كتف جنّات، أن يُقبّل جبين عائشة، أن يقول: أنا هنا، من أجلكم. لكنه، في كل مرّة، اختار الصمت. الصمت الذي لم يكن حكمة... بل هزيمة.

جلس في الزاوية، كأن الغرفة تضيق عليه شيئًا فشيئًا، كأنها تتحول إلى علبة دخان، والذكريات تنهال عليه كصخور تتدحرج من قمة جبل طفولته. لم

تكن دموعه بكاءً، بل كانت نسخًا منه تتساقط... واحدةً تلو الأخرى.

نظر إلى (شِلْنْجِن)، وسأله بصوت مبحوح كمن يخاطب نفسه:

"هل ســأبقى هنا؟ داخل الجُحر اللي حفرته بيدي؟ هل في طريق أقدر أهرب فيه؟"

ردّ (شِلْنْجِن)، بصوتٍ ناعم كخدعة:

"الطريق مفتوح قدّامك... لا تقلق... قربت تنتهي."

مدّ مساوئ يده نحو فكرة، لكنها تسربت من بين أصابعه كما يتسرب الماء من قربةٍ مشقوقة. الظلال تمددت في زوايا صدره، أفكار سوداء تشبه وجه (شِــلْنْجِن)، تلعب به كما يلعب الدخان في حريقٍ بلا نار. كل شــيء صــار غريبًا، حتى هو، حتى نفســه... لم تعد تشــبهه. لكن كان هناك (شِــلْنْجِن)... الوحيد الذي بقي.

اســتند إلى الحائط، عيناه معلّقتان على البندقية الروســية القديمة. وســأل، كمن يستدعي ذكرى خجلة:

"فين صقر؟"

"أكثر شخص حبيته من أصحابي."

أمسك بالسلاح، قبض على الزناد، لكن إصبعه ارتجفت... لم يضغط. وفي اللحظة ذاتها... اختفى (شِـلْنْجِن). ودخل (صـقر). من الباب... أو ربما من الذاكرة.

❊ ❊ ❊

٤٠

صقر.

أصلع. مفتول. صوته رجولي كندبة في ذاكرة الوطن. لكن وجهه... دخان.

"كيف حالك، يا مساوئ؟"

قالها وهو يمدّ يده، كأنه يقدّم له آخر علبة كبريت قبل العتمة.

مساوئ نظر إليه، وجهه شاحب... مثل قشرة تمر نُسيت في صحراء قاحلة.

تمتم:

"أفضل من أمس..."

لكن صوته لم يصل، انكسر في منتصف الطريق... كأن حنجرته لا تثق به بعد الآن.

صقر جلس، أخرج علبة بيضاء... العلبة نفسها. الحبوب نفسها التي يعرفها منذ المهمات التي لا تنتهي.

"تتذكر؟ هجمة العند؟ تتذكر كيف سحقتهم؟"

كيف كنت دائمًا تقول لنا: "بالقتال نحيا ونعيش..."

مساوئ ضحك بمرارة:

"أنا ما كنت أقاتل عشـــان أعيش... كنت أقاتل عشـــان أموت. بس حتى الموت، كان يبخل عليّ."

صقر هزّ رأسه بإعجاب:

"بس كنت شجاع..."

مساوئ نظر إلى السقف:

"كل شيء تغيّر... حتى الشجاعة تغيّرت."

صقر أعاد العلبة إلى يده، ووضعها بينهما كأنها عرضُ هدنة:

"ذلحين؟ الشجاعة أنك تكمّل جرعتك... وتنسى."

ثم قال بابتسامةٍ مطفأة:

"خذ... ذي بتخلي قلبك يخف شوية."

مساوئ تردّد... ثم نظر إلى العلبة، ثم إلى وجهه في المرآة البعيدة، ثم إلى عائشة... التي كانت هناك، مجرد ظلّ من ضوء في الزاوية.

"خذلتهم... جنات... عائشة..."

صقر أدار رقبته ببطء:

"الأخطاء مش هي المشكلة... حاول تنسى، لأن النسيان هو العلاج."

سحب حبّة من العلبة، ثم قال:

"بس لا تشربها كلها مرة وحدة... خليك صاحي شوية... علشان الندم ما يكملك."

ضحك.

أو حاول أن يبدو كمن يضحك.

مساوئ... بلع الحبّة، كأنها سُكر نبات. وسرعان ما بدأت برودة خفيّة تتسلل إلى عروقه،

كأن جسـده يُطفئ نفسـه ببطء. الراحة الزائفة كانت تغلّف روحه... لكن عائشة؟

بدأ وجهها يتلاشى، يذوب في الضوء، يتحوّل إلى بقعة بيضاء بعيدة.

الانحدار بدأ. لا أحد دفعه. هو فقط... سـحب نفسًـا طويلاً... وترك نفسـه يسقط. في صمت.

❊ ❊ ❊

٤١

في صيف عدن اللاهب، نقطة الالتقاء بين صقر ومساوئ.

خرج الأخير بلا وجهة، كمن يمشي على خرائط وهمية مرسومة بالظل. قاده التيه إلى مقهى السكران في كريتر. ذلك المقهى الذي لا يتغير... رائحة الشاي العيدروسي بالحليب المجفف، جدران مشققة، ومراوح تتأرجح من السقف بتعبٍ يشبه تنهيدة وطن. في الزاوية، جلس صقر... بنطال صاعقة، نظارة سوداء، كوفية تغطي صلعته، وعرق يتصبب من تحت قميصه الأسود كمن خاض حربًا لا مرئية.

أكواب الشاي، دخان السجائر، لعبة الكَيرَم، وضجيج الرجال الذين يتكلمون عن كل شيء... ولا شيء. لكن مساوئ لم يكن هناك معهم. عيناه التقتا بعيني امرأة جلست قربه، نظرة سريعة، ثم أشاح وجهه. كأن في عينيها مرآةً... لا يريد أن يرى نفسه فيها.

ثم جاء الصوت. من أعماقه. من حيث لا يعرف.

"ليش ما تضحك؟ ما قلنا لك تلبس وجه السعادة؟"

الضحكات حوله تحولت لأزيز شاحنات. رائحة الشاي صارت دخان بارود. المرأة اختفت. وحلّت مكانها... أمه. تجلس في الزاوية نفسها، تبكي.

"ليش ما تساعد نفسك يا ابني؟"

أراد أن يرد. لكن الصوت كان يأتي من خلف باب حديدي في آخر ذاكرته.

ضاق صدره. نظر إلى الطاولة، لم يكن عليها سوى ملعقة. لكن في رأسه... كانت هناك علبة الحبوب.

همس لنفسه:

"أنا أكرر أخطاء أبي."

قال للنادل، وهو يهذي:

"إذا كنت من مجتمع لا يعترف بالجراح... فكيف تريدني أن أعترف بألمي؟ أعطني جرعتي... الآن."

النادل تمتم:

"أنت دايمًا تقسو على نفسك."

رد بصوت مرتجف:

"مش أنا... هو."

كل شيء حوله تهاوى... ثم قام، وسار نحو خزانة المال. وبدأ بسطوٍ أخرق، كأنما يعجل بجنازته. ضربه عمال المقهى، لكنه لم يشعر بشيء. ثم جاء صقر. بجسده الطويل، وعينيه الحادّتين كرصاصتين مرَّتا على عمرٍ بأكمله. أوقفهم بإشارة من يده، دفع المال دون أن يتكلم، ثم اقترب من مساوئ. لم ينظر إليه كثيرًا... فقط قال:

"تعال."

أخذه معه في سيارته.

جلوسه إلى جانبه كان يشبه الجلوس بجانب خزان بارود... صامت، لكنه

مستعد للاشتعال.

فتح الزجاج، أشعل سيجارة، ومضى يقود في طرق عدن المكتظة، ببرودة من شهد كثيرًا، وتألم أكثر. ثم قال بصوت خفيض، دون أن ينظر إليه:

"من زمان وأنا أشوفك تتمرمط... ما قدرت تشد نفسك."

لم يرد مساوئ، كان يحدق في المرايا الجانبية، كمن يبحث عن شيء ضاع منه في الطريق.

أكمل صقر:

"أمهاتنا يولّدن رجالًا، لكن بعضنا يموت قبل أن يصير رجلًا."

ثم التفت إليه، وقال:

"عندي لك عرض... تبدأ دورة في معسكر العند. لدَفعة جديدة من قوات الحماية والدفاع. الراتب حلو... لكن مافيش نوم.

بس....."

نظر إليه بعمق:

"على الأقل، هناك، ما بتضطر تسرق."

مرّت لحظة صمت. عدن في الخلفية كانت تبدو كأنها تحترق تحت شمس غاضبة، وفي الداخل، كان قلب مساوئ يحترق أيضًا... لكن هذه المرة، ربما، بطريقة مختلفة.

"أيش قررت؟"

قالها صقر وهو يركن السيارة على جانب الطريق. ثم أخرج من جيبه ورقة

صغيرة كتب عليها رقمًا، وأضاف:

"بكرة الساعة سبع... البوابة الشرقية. إذا جيت، حياك. وإذا ما جيت..."

صمت. فتح الباب، ونزل دون أن يودعه، كأن الرحيل الصامت طريقته الوحيدة.

في اليوم التالي، لم يأتِ مساوئ. وكأن وعده كان مجرد نوبة شعور عابرة، تلاشت مع أول نسمة شمس. لكن صقر لم يكن من أولئك الذين ينتظرون كثيرًا.

قُبيل الظهر، مضى نحو يسلم، جاره الذي يعرف دروب مساوئ أكثر مما يعرف دروب نفسه.

قال له بنبرة حازمة:

"خذني عنده... الآن."

ساروا معًا عبر أزقة ضيقة، بيوتها مشققة، وسكانها يشبهون هنود موميباي... لا يظهرون إلا عندما تنتهي المشاكل. وصلوا إلى منزل مهترئ، دفع صقر الباب كمن يقتحم معركة لا يخشى خسارتها، وصعد الدرجات بصوت حذائه الذي يعلن حضوره قبل أن يتكلم. دخل الغرفة دون استئذان. كان مساوئ ممددًا على الفراش، وجهه غارق في العرق والرماد، وعيناه نصف مغلقتين، كأنهما لم تعتادا على الضوء.

اقترب منه صقر، ركع عنده، ثم بصوت يشبه صفعة:

"أنت ما تشتي عمرك تعتدل؟"

لم ينتظر ردًا، أمسك بقميصه وسحبه من صدره، حتى سُمِع صوت تمزق قميصه...

كأن جسده ذاته لم يكن مستعدًا للقيام. نظر إليه مساوئ، تائهًا، عاجزًا عن المقاومة، كمن أيقظه القدر بقبضة رجل، لا بيد رحيمة.

قال صقر وهو لا يزال يشدّه:

"مش كل مرة باتسلم جرتك."

❊ ❊ ❊

٤٢

في العند، سقط مساوئ من جديد.

دخل السجن مرتين. فشل في الدورة، أضاع البوصلة مرارًا... لكن، في كل مرة، كان صقر هناك. يظهر فجأة، بكيس خبز، أو بسيجارة، أو حتى بشتيمة ثقيلة لكنها تشبه العناق. وبالعلاقات، والإلحاح، والضغط، اجتاز مساوئ كل الاختبارات.

وفي صباحٍ رماديّ، قبض أول راتب له كعسكري. لم ينظر إلى الورقة النقدية... بل نظر إلى كفيه. ورأى فيهما أخيرًا... خشونة رجل.

❊ ❊ ❊

٤٣

توقف صـوت الذكريات، وانتبه مسـاوئ إلى وجه الفأر الذي يفصـل بينهما شبرًا واحدًا.

رفع العصا ببطء، ثم ضربها بقوة على جسد الفأر الصغير. ارتطمت العصا بالأرض، وتحرك جسـد الفأر في ارتجاجات قصـيرة، كأنه يحاول النجاة. أقدامه ترتعش بلا قوة، كأنه إعلان أخير، وركل آخر ركلة ضـعيفة قبل أن يستقر بلا حياة على الأرض.

وقف مسـاوئ ينظر إليه، وأدرك أنه قد عاد، إلى الحاضـر، إلى الغرفة، إلى البقعة السوداء،

إلى وجه (شِلْنْجِن).

"أريد أن أعترف لك بشيء... لا يُغتفر."

"ما هو؟"

"أنا... كلما غرقت، كنت أهرب إلى الإدمان."

"أعرف."

"لفترة طويلة كنت بلا وظيفة... وأبي حرمني من الميراث، وعشـتُ جحيمًا. تهجّمت على مقهى السـكران... كنت على وشـك أن أفقد حياتي... لولا صقر."

"وبعدين؟"

"صــقر دفع عني، وظفني بـالجيش، مررني رغم فشــلي، صـــار صديقي... لكني كنت أهرب منه... مثلما أهرب من نفسي."

صمت (شِلْنْجِن). نظر إلى الساعة، ثم قال:

"حتى صــقر، ما يقدر يحميك من مصــيرك. أنا... كنت أعرف، أن النهاية قربت."

مساوئ أدرك أن الطريق ينتهي حيث بدأ:

في الهروب.

لكنه هذه المرة، توقف لحظة.... ونظر إلى كوب الشاي. الذي تركته عائشة. البخار تلاشى... لكن الأثر... لا يزال.

❊ ❊ ❊

٤٤

في الغرفة المجاورة، أغلقت جنات النافذة. كانت الريح تتسلل من الشقوق، كأنها تهمس بأخبار لا يجرؤ أحد على قولها. الستارة ترفرف بنبضٍ خافت، كأنها روحٌ تتنفس بصعوبة، والهواء محمّلٌ برائحة مزيج من بخور قديمٍ وملابس مبللة لم تُنشر. جلست فوق الفراش، فوق شرشفٍ باهت، وقدماها مكشوفتان للبرد. كانت تقلب في الجوال، لا بحثًا عن شيء، بل هروبًا من كل شيء. الصفحات تمر كحياتها... أصوات بلا دفء، صور بلا أمل.

دخلت عائشة، وقفت عند عتبة الباب، حافية القدمين، بثوب نومٍ مطبوع عليه أرنبٌ باهت.

كانت عيناها تطلبان شيئًا لا يُقال.

"مالك يا روحي واقفة؟ تعالي جنبي."

اقتربت عائشة، لكن خطواتها لم تكن مطمئنة. كأنها تخشى أن تزعج الغرفة بصمتها.

"ماما... أنا خايفة."

شدّت جنات الغطاء، فتحت ذراعيها، ضمّتها بقوة.

"بسم الله عليك، من أيش؟"

"مش عارفة... بس حاسة بشي غريب."

وضــعت جنات يدها على صــدر الطفلة، كأنها تريد طمأنة قلبٍ لا تُدرك ما يُؤلمه.

"يمكن تعبانة؟"

هزّت عائشة رأسها نفيًا، ثم همست:

"ليش بابا ما يجي يجلس معنا؟"

تنفّست جنات ببطء، الهواء بارد، لكنه يخفي شيئًا ساخنًا في الصدر.

"أبوك تعبان شوية، دَخل يرتاح."

صمتت عائشة قليلاً، ثم رفعت عينيها...

"ماما، هو يحبني؟"

في تلك اللحظة، انكمش قلب جنات. فكرت: "كيف أشــرح لها أن أباها يحبها، لكن... بطريقة مشــوّهة؟ بطريقة لم يتعلمها؟ بطريقة تعرقلت في طفولته وامتدت إلينا؟"

"أكيد يحبك، يا قلبي... ولما تكبري، بيحبك أكثر."

"وانتي؟ تحبيه؟"

فكرت... كيف أشرح لها؟ أن الحبّ أحيانًا يكون فعل صمت، وأن العيش مع رجلٍ موجوع، يشبه أن تسكني غرفة دخان... تخافين أن تتنفسين كثيرًا، كي لا تشتعل شرارة.

"أنا أحبكم، أنتِ وأبوك..."

"ماما.. قولي لي قصة عنه."

ابتسمت... وشيء ما كسر جدار الذكرى.

"تذكُري لما كنتِ صــغيرة؟ كان يشــيلك، يوديك الحديقة، ومرة ودّاك البحر، وأنا خفت... رجعتِ مبللة بالتراب والماء."

"هاااا، وإيش قلتي له؟"

قلت له: "أنت مجنون! دخلت عائشة البحر؟"

ضحك وقال: "كانت فرحانة... وضحكتها تجنن"

تذكرت الضحكة... كانت نادرة، كأنها زائرٌ يمرّ في العام مرة.

"ماما... ليش ما عاد يوديني البحر؟"

"الدنيا تغيّرت... وأبوك مشــغول... لكن إن شــاء الله، بيرجع زي أول."

"وليش ما تتكلموا؟ ليش هو دايم جالس لوحده؟"

"بعض الكلام، يا بنتي... ما ينقال. يظل جوّه القلب."

"ليش؟"

"لأن الإنســان أحيانًا... لما يتعب، ما يعرف كيف يحكي، يجلس لوحده."

❊ ❊ ❊

٤٥

وضعت عائشة رأسها على صدر أمها، صوت أنفاسها خافت، لكنه يطرق أبوابًا في القلب. أما جنات، فقلبها كان في مكانٍ آخر... قالت في سرّها: "في بيتنا الريفي... عندما كنت صغيرة، أمي تصرخ... لكن أبي كان دائمًا يصمت. يتجنب، يبتعد، أبي كان ضعيفًا أمامها... لكن قويًّا في قلبي. كنت أقول له: ليش تسكت لها؟ وكان يقول لي: أمّك عاشت في جحيم قبل ما تجي هذا البيت... أنا أعذرها، وأصبر.

تعلّمت الصبر من أبي، لكن أمي... كانت تجرحني بكلامها، تقزّمني، تحاسبني حتى على ضحكتي. كنت أغضب كل يوم، أغضب لأبي، وأشعر بالذنب لأنني أنحاز. ثم جاء مساوئ، رأيت فيه ظلًّا آخر، رأيت فيه وجع أبي، لكن لم أكن مستعدة أكرر غضب أمي. أنا اخترت الصبر... والحب... والاحتواء لأني كنت أريد أن أكون الحصن، لا الجدار. لكن أحيانًا، حتى الحصن... ينهار."

ثم سكنت قليلًا، واستسلمت لذاكرتها، كأن الماضي قرر أن يطرق الباب دون استئذان.

"طفولتي المُرهقة؟ كانت تبدأ بالصراخ... وتنتهي بالهرب.

في بيتنا الريفي، ما بين الحطب والطين، كانت أمي عنيفة، تمسك بعصا

يابسة، وتطاردني كأنها تطرد خوفها... لا أنا. كنت أركض، أتعثر، أبكي، حتى أصل إلى حضن أبي.

أبي... كان يجلس في الزاوية، يشرب القهوة، وعيناه نصف مغمضتين، لا من النوم، بل من رعب أمي. حين أركض نحوه، لا يسألني: "ماذا فعلتِ؟"، بل يقول دائمًا بصوت منخفض كالماء:

"خلاص اهدئي، اجلسي هنا."

كان يحضنني وهو يخبئني خلفه، وكأنه يغطي جرحًا لا يريد له أن يُرى.

أمّي؟ كانت تقف في الباب، تلهث من الغضب، وتصرخ:

"بتدلّعها! عشان تفسدها.. بنتك ما بتتربّى إلا لما تنجلد!"

وكان يردّ، بنبرة لم يسمعها سواي:

"مش بالضرب يا مسعدة، بنتنا بالحب تتربى."

كان هو ضوئي في الزوايا المظلمة، رجل قليل الكلام، لكنه حين يتحدث، يعيد ترتيب روحي. أجلس في حجره، أتنفس رائحته المختلطة بالتبغ والحنان، وكان يقول لي دائمًا:

"لا تصيري مثل أمك... خلّي قلبك كبير، مثل أبيك."

ربّاني على الهدوء، جعلني أؤمن أنني حين أُخذل، لا ينبغي أن أصرخ... بل أن أفهم.

أن العنف لا يجب أن يُنسخ، بل يُكسر. كنت أحفظ كل جملة يقولها لي، وأخبئها تحت وسادتي، كأنها تعاويذ ضد الانكسار. وحين كبرت، حملت

كل تلك الجمل معي، وحين جاء مساوئ... ووجدت فيه جدارًا آخر، قلت: سأكون الحديقة.

وجدت فيه قسوة تشبه قساوة أمي، فقلت: سأكون صوتًا يُطبطب... لا يُؤلم."

مسحت على شعر عائشة، وعيناها تبحثان عن الغرفة المجاورة...

"هل يسمعنا الآن؟ هل يشعر بي وأنا أحاول البقاء؟"

جلست هناك، تحضن ابنتها، وتنتظر... ربما... صوته. ربما... شيئًا يشبه العودة.

❊ ❊ ❊

٤٦

في تلك اللحظة، كان مساوئ يغرق.

غرفته لم تعد غرفة. أصبحت هوّة، تتنفس حزنه، وتبتلع صوته.

أما (شِلْنْجِن)، فكان يجلس أمامه مستمتعًا، كغولٍ يتغذى على رماد الروح.

عندما لم يعد هناك شيء ليتغذى عليه، لم يبقَ له إلا الورقة الأخيرة. اقترب، ولمع في عينيه بريقٌ غريب:

"أظن أنّ وقت النهاية قد حان، أليس كذلك؟"

رفع مساوئ رأسه، كمن استيقظ من سباتٍ ثقيل:

"النهاية؟ تقصد الموت؟"

ابتسم (شِلْنْجِن) ابتسامةً مشوهة:

"لا تكن سطحيًا... النهاية ليست موتًا، بل إعلان لبداية جديدة، لصفحة تُكتب بيدك، وتختم بحبرك الأسود."

فتح مساوئ الدرج. كانت الأوراق هناك، مبعثرة، مليئة بخطوط ملتوية لا تحمل معنى... لكنها تشبه رأسه تمامًا. تشبه أيامه، تشبه الطريقة التي عاش بها: بلا ترتيب، بلا مفاتيح. كاد يمزّقها، لكن يد (شِلْنْجِن) أوقفته:

"ماذا تفعل؟"

"أريد تمزيق هذه الأوراق. لا حاجة لي بها، فقط ورقة واحدة أكتب فيها رسالة وداع لجنات."

نظر (شِلْنْجِن) إلى الساعة المعلّقة على الحائط وقال:

"لم يتبقَ كثيرًا على أذان الفجر، يجب أن ننهي هذا الآن. حاول أن تسرع."

أمسك مساوئ بالقلم، لكنه لم يكتب:

"لم أفكر بالموت الآن... أريد أن أحضر صباح اليوم مع زملائي عرضي العسكري الأول."

ضحك (شِلْنْجِن) بسخرية:

"كنتُ أعلم... لا تكن غبيًا، هذا العرض لن يتم!"

"ماذا تعني؟ لقد خُطط له منذ أكثر من شهر!"

تنهد كمن يبحث عن شيء في الهواء يأكله، قبل أن يقول:

"في هذا الشهر بالتحديد، تحدّثت العرّافة (ليلى) عن هجوم إرهابي في عدن، يستهدف عرضًا عسكريًا لتخرّج مهيب. قالت إن نسبة الناجين ١٪ فقط، ٩٠٪ قتلى، و٩٪ مشوهون بحروق عميقة."

فكر مساوئ ثم قال:

"هذا يعني أني باموت شهيد، لا حاجة للانتحار."

ضحك (شِلْنْجِن) مجددًا، بصوت أعلى:

"لا تفرح كثيرًا... أستبعد أنك من القلّة الناجية، وهم عدد ضئيل جدًا. لا شيء يشفع لك كي تنجو، ولا شيء يؤهلك لتكون من شهداء الأغلبية. صدقني... نصيبك أن تكون من أولئك الذين

سيحترقون، ويعيشون بأشكال قبيحة... مثلي."

تخيّل مساوئ شكله يشبه (شِلْنْجِن)، فشعر بالخيبة والاشمئزاز.

تابع شِلْنْجِن:

"ثم إنك ستعيش، وسيرثى لك الجميع. بل ستكون عبئًا على جنات إلى الأبد. لكن... يمكنك إنهاء كل هذا الآن. تخلّص من هذا العبء، تحرّر. افعل ذلك من أجل عائشة، اقتل نفسك... وتحرّر. افعلها، مساوئ... الآن. هذه فرصتك الأخيرة."

أخفى لعابه، الذي يسيل إلى دقنه.

صمت.

أمسك مساوئ بالقلم، نظر إلى (شِلْنْجِن)، الذي وقف أمام البقعة السوداء في ركن الجدار. ربما أمل أخير، أو وهم بالكتابة، أو حاجة دفينة لترك شيء خلفه.

وضع القلم فوق الورقة، يده ترتجف كغصن (البيدان) في رياح الصيف، وكتب:

"لا أقدر أن أغيّر الماضي، لكني أقدر أن أوقف هذا الألم."

نظر في المرآة. لم يرَ مساوئ، لم يرَ أباه. رأى فقط وجهًا يشبه بيوت عدن القديمة... جدرانها متشققة، أبوابها تصدر صريرًا، لكنها لا تزال واقفة.

الهدوء داخله لم يكن سلامًا... كان استسلامًا. صمتًا لا يحتمل صوتًا آخر.

همس لنفسه بصوت خافت:

"أنا آسف، جنات... أحتاج أرتاح."

رفع البندقية الروسية.

لم يكن يهدّد الحياة... كان يودّعها.

العيون زائغة نحو السقف، كأن الأجوبة مكتوبة على خشبه المتقشر.

الثواني تمددت، كأنها شوارع عدن في الظهيرة: بلا ظل، بلا نهاية.

الوجوه اختفت.

الممر تلاشى.

المصحة؟ لا وجود لها.

الطبيب، فضول، يسلم، الوجوه، الضحكات...

كلّها تهاوت مثل جدار طيني تحت المطر.

بقي فقط:

هو، وقلبه الذي ينبض مثل طبلة ممزقة.

و(شِلْنْجِن)، الذي تقمص جميع الأدوار.

مساوئ كان يعرف... لكنه فهم متأخرًا: أن الهروب لم يُنقذه... بل أغرقه.

وفجأة، دارت يده في الهواء. ضغط على الزناد، بالخطأ.

قبل أن يصوّب البندقية إلى قلبه. الرصاصة... شقّت طريقها في الهواء.

لم يكن صوتها انفجارًا... بل ارتياحًا أخيرًا.

الصدى ضرب الجدران، ثم استقر في البقعة السوداء.

لُصق رأس (شِلْنْجِن) بالجدار، وصارت البقعة السوداء وجهًا تشكّل من

شقوق الرصاصة:

عينٌ من بقعة داكنة، وأخرى تلمع بقشرة الرصاصة المغروسة في الجدار.

(شِـلْنْجِن) لم يعد واقفًا. لم يبقَ سـوى أثر وجهه، أما هو... فقد ذاب في السواد. لكن تلك العين، ظلت تنظر نحو مساوئ... بلا حياة.

نظر مساوئ إلى الباب، وقد فُتح لأول مرة... بقبضة جنات. ورآها... عائشة حية، تركض من الخلف. لا دماء على صدرها. لا رعب في عينيها.

فقط:

حب... وخوف على والدها.

حبٌ لم يُدنّسه صراخ، ولم يقطعه صوت بندقية.

ركضـت نحوه لأول مرة... تعانقه. سـقطت البندقية من يده، كما تتسـاقط الأقنعة حين يحين موعد الحقيقة.

وانهار... بكى.

جهش بالبكاء كما لم يفعل من قبل.

ركضت جنات، لم تتردد. أمسكت به، ثم اقتربت خلفها عائشة، وعانقته هي الأخرى.

كان عناقًا لا يشبه العناق... كان احتضانًا للروح، لا للجسد. دفء غريب عمّ المكان، كأن النور تسـرّب من بين أنفاسـهم، وكأن جدران الغرفة تنصـت لبكائهم وتتنفس معهم.

بكى الجميع، لكن صـوته وحده كان الأعلى. يغمر كل شـيء حوله، يغطي

على صـوت عائشـة، ويُخفي شـهقات جنات. كان يبكي كمن ينزف عمرًا، كمن يلفظ آخر ما تبقّى من وجع قديم. كمن يستشفي... من جرحٍ لم يندمل، من كلماتٍ اختنقت في حنجرته لسـنوات، من مشـاهد ظلّت تلاحقه في كل مرآة.

تورّمت عيناه، وكانت دموعه تسقط واحدة تلو الأخرى... فوق خدي جنات، وتبلّل رأس عائشة. وكان مع كل دمعة، يستشعر شيئًا لم يعرفه من قبل... كأن الشفاء يتسلّل بين الضلوع، كأن روحه تعود إلى الحياة بعد غيبوبة طويلة.

لم يكن بكاءً فقط... كان طُهرًا، غُسـلًا روحيًا، تطهيرًا لكل ما أثقله من ذنوب وصمت وخوف. ربما... كل ما كان يحتاجه خلال تلك السنوات، هو لحظة كهذه:

أن يُبكي ألمه، أن يُنزف ضعفه، أن يُخرج قهره وكبته، لكي يبدأ بالشفاء.

كانت عيناه غارقتين بالدموع، ومن خلف تلك الغشـاوة كان يُحدّق في بقعة سـوداء في الجدار. هناك... في ظلال تلك البقعة، تراءى له (شِـلْنْجِن) ميتًا، وتناهى إلى ذاكرته أول لقاءٍ بينهما في الغرفة حين قال له ضاحكًا:

"أنا (شِلْنْجِن)، المجنجن، أمي من جُبن، وأبي من عدن!"

تذكّر كيف كانت ذكرياته تتغذى على ألمه، كأنها طفيليات تنخر روحه... أما الآن، فقد أحس بأن ثقلًا رُفع عنه.

"لقد ذهب..." همس في نفسه.

لم يعد (شِلْنْجِن) سوى ذكرى، ككابوس انتهى بضوء الصباح.

قال لجنات بصوتٍ مخنوق بالبكاء:

"أول مرة أشعر أن حضنك فيه شفاء... شفاء يعجز عنه الطب."

أجابته جنات بصوتٍ متقطع:

"الحمد لله إنك بخير... يا حبيبي، الحمد لله إنك موجود بيننا..."

ثم تابع وقد لمعت دموع في عينيه:

"كنت أظن أني قتلتك يا عائشة... لكنك أمامي الآن... وأريد أن أقول لك: أحبك. أنتِ أغلى هدية أعطاني الله."

تمرمغت عائشة في حضنه، رأسها مدفون في صدره كطفلة ضائعة وجدت والدها أخيرًا:

"وأنا كمان أحبك... يا باه، يا حبيبي..."

في تلك اللحظة، كان الأذان يرتفع من جامع (أبان). الصوت يتسلل من مئذنته العتيقة كنسمة صلاةٍ في جوف العدنيّين النائمين، يذيب الظلام بصدى "حيّ على الفلاح"... اهتزت أذنا مساوئ، كأنما ناداه الصوت باسمه، باسمه الكامل، باسمه الذي أخفاه عن نفسه طويلًا.

توقف عن الكلام، التفت إلى جنات، ومسح دمعة انحدرت على خدها بأصابعه المرتجفة، وهمس:

"أريد أن أفلح يا جنات... لمرةٍ واحدة فقط. أريد أن يغفر الله لي... أن أعود إنسانًا."

طلب منها أن تمشي معه حتى الباب. خطاه لم تكن خطى رجل يمشي إلى

مسـجد، بل كانت خطى قلبٍ يعود إلى الله بعد ضـياعٍ طويل. جنات خلفه، تهمس بدعواتٍ واهنة، كأنها ترقّق له طريقًا كان قاسيًا عليه دومًا.

الريح ناعمة، والمُولِّد الكهربائي في الحارة يئنُّ بصـوتٍ خفيض. ضـوء المصـباح الشـاحب يضـيء الدرجات الثلاث المؤدية إلى بوابة المسـجد الحديدية. كانت بوابة صدئة، لكنها الآن بدت كمقام مفتوح، كأنها تقول له:

"ادخل، لن نغلق في وجهك الباب هذه المرة."

دخل مساوئ.

❊ ❊ ❊

٤٧

المسجد من الداخل...

رائحة السجاد الرطب، خليط من بخور الأمس وعَرق المصلين. الجدران ملساء، باردة، تتسلل منها ذبذبات القرآن كأنها تهمس للداخلين: "اسجدوا، واقتربوا."

القطيفة الخضراء فوق المحراب باهتة، ولكنها ما زالت شامخة كجبهة نبي مُرسل. الإمام كان هناك، في المحراب، يصلي ركعتين قبل الفجر. كان رجلًا نحيلًا، قضى عمره في الدعوة، يُجلّ الطائعين، ويزدري العصاة، وقد قال ذات يوم:

"الذي لا يصلي ليس من المسلمين، لا يُغسل، ولا يُكفّن، ولا يُصلّى عليه."

ولم يكن يدري... أنه سيكفّن من ظنّه بعيدًا.

مشى مساوئ متسللًا من الملحق الخلفي، بين صناديق المصاحف القديمة، بخطى مرتجفة. لم يرفع عينيه نحو الإمام. كان يخاف النظرة... ويخاف الكلمة.

أُقيمت الصلاة. دخل الصف الأول... بخطى رجل ينفض عنه غبار عمرٍ من الخوف. وقف بجانب الشيوخ. لا أحد تكلم، لكن العيون همست:

"الله أكبر."

تكبيرة الإحرام لم تكن لحظة عادية في حياة مساوئ. كانت إعلان العودة. كانت السطر الأول في صحيفته البيضاء. ركع مع الراكعين. رفع مع الرافعين. وفي الركعة الثانية... تلا الإمام بصوتٍ جهير:

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"

في تلك اللحظة... انفجر مساوئ بالبكاء. سقطت دمعةٌ ثقيلةٌ على سجادة المسجد. ركبتاه تهتزان، شفتاه تتحركان بلا صوت، وعيناه تسبحان في بحيرةٍ من الذهول.

كأن هذه الآية وُلدت من أجله.

في السجود، لم يقل شيئًا. لم يكن يعرف دعاءً منمقًا.

فقط همس:

"يا الله... أنت الله... يا الله..."

كان قلبه يصرخ، لكنه يهمس. وكان رأسه في الأرض، لكن روحه في السماء.

ثوانٍ مرّت...

دقائق ربما. رفع الإمام من السجود.

"الله أكبر"

الجميع قام.

إلا هو. ظلّ ساجدًا. ظنّه المصلون في لحظة خشوع، لكن دمعه كان قد توقّف... وصدره لم يعُد يهتز.

عند التسليم، تلفّت من بجانبه، ثم أحدهم همس للإمام:

"لم يرفع رأسه... هل هو بخير؟"

اقترب الإمام. ركع بجانبه، لمس كتفه... لا شيء.

همس باسمه:

"أخي؟"

لا شيء.

مدّ يده إلى عنقه.

لا نبض.

رفعه بلطف...

كان مساوئ، ساجدًا.

ميتًا.

ميتًا في بيت الله، في ركعة توبة، بعد أن تلا إمامه:

"إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا"

الذي قال يومًا:

"لا يُصلّى على من لا يصلي"،

ها هو اليوم... يُدرك أن الله يختار متى وكيف يكتب الخاتمة.

وبخاتمة مثل هذه، لم يعُد أحد يجرؤ أن يقول:

مساوئ... لم يكن من الصالحين.

❊ ❊ ❊

٤٨

تحت سماء رمادية، انحنى الناس كأغصان شجرة جريحة، كأن المدينة كلها تنحني على كتف من غاب. لا صـوت سـوى خرير الأقدام تغوص في طين "مقبرة القطيع"، ولا شيء سوى التراب يستعد لاحتضان رجلٍ، تأخر عن نفسه طويلاً... ثم جاء.

النعش يمضـي ببطء، كأن الهواء يثقله، تحمله أكتاف لم تُختبر في معركة، أكتاف أصدقاءٍ لم يحضروا ساحة المواجهة... لكنهم حضروا الوداع.

زملاؤه غابوا، منشغلين بالتحضير لأضخم عرض عسكري تشهده عدن. بعضـهم شـعر بالحزن، ليس لأنه مات، بل لأنه لن يكون معهم اليوم في العرض. كان النعش يرتفع على أكتاف ثلاثة...

صقر، يسلم، الدكتور ماهر.

ثلاثة رجال، حمل كلٌّ منهم جزءًا من الرواية، لكن لا أحد منهم اسـتطاع أن يحمل صاحبها كما ينبغي.

"ليش ما قال شيء؟ ليش خلانا نصدق إنه بخير؟"

قالها صقر، وهو يطالع النعش كأنه ورقة امتحان... لم يكتب فيها شيء.

عضّ يسلم على شفته، وهمس:

"صح مات ساجدًا... بس كان لازم يعرف إننا نحبه."

ظلّ الدكتور ماهر صامتًا، عيناه تتنقلان بين التراب، والسماء، ولا مكان.

قال أخيرًا:

"اللي يظهر قوي... أحيانًا يكون أكثر الناس وجعًا، بس ما حد يلاحظ."

حين لامست أول حفنة تراب الكفن، اختنقت الأنفاس، وانكسرت جُمَل كثيرة لم تُقل.

قال صقر بصوت بالكاد يُسمع:

"كنت أعرف أنه يتألم... بس ما خلاني أدخل، كان يقفل قلبه زي باب من حديد."

هزّ يسلم رأسه بأسى:

"لو بس كسرنا الصمت... لو حكينا قبل ما يفوت الأوان!"

لم يتحدث أحد بعدها. العيون تكفّلت بما تبقى، وكانت... مليئة. كل حفنة تراب دُفنت معها جملة، دمعة، ندم.

وقف صقر، يداه على جانبيه، ليس غاضبًا من أحد، بل من الفراغ الذي خلّفه مساوئ، من كل جملة تأخرت، ومن كل دفء فات أوانه.

الوجوه تفرّقت، والخطى انسحبت بهدوء. بقي التراب.

ثم قال الإمام، واقفًا عند حافة القبر:

"يا رب... ارزقنا حُسن الخاتمة."

خاتمة كما خُتمت حياة مساوئ.

وفجأة... دوّى انفجار.

ارتجّت الأرض. صوت الانفجار ارتفع من جهة (البريقة).

العربات العسكرية انطلقت، وأصوات الإسعاف تشقّ الطرقات كأنها تستدرك قدرًا كُتب مبكرًا.

التفت يسلم:

"يا الله... لطفك بالناس، أيش حصل يا صقر؟"

أنهى صقر مكالمة هاتفية وهو شاحب الوجه:

"انفجار في معسكر الجلاء... هجوم إرهابي."

هزّ الإمام كتفيه، ورفع يديه للسماء:

"لا حول ولا قوة إلا بالله... حسبنا الله ونِعم الوكيل."

قال الدكتور ماهر بشرود، كأن الكلمات تخرج من داخله لا من لسانه:

"العرض اللي كان من المفروض يحضره مساوئ..."

تحرك الجميع.

سأل الدكتور ماهر وهو يسرع خطواته:

"الطريق إلى المطار مفتوح؟"

انحنى صقر عند أنبوب الماء أمام بوابة المقبرة، غسل يديه من الطين، ثم رفع رأسه، مسح وجهه... ومسح على صلعته ببلل الماء. ثم التفت وقال:

"ليش تسأل؟"

قال الدكتور ماهر:

"بيسافر أخي وزوجته، ومعهم الأولاد إلى مصر... ومن هناك، إلى أمريكا."

تدخل يسلم:

"العيشة في عدن ما عادت عيشة..."

يا تموت، يا تهاجر.

قال ماهر بهدوء:

"في مشفانا ثلاثة أطباء شباب، من أمهر الجراحين... كلهم غادروا. أحدهم صديق لي... اليوم هو رئيس قسم في أكبر مستشفى بألمانيا."

صمت.

كان يسلم يريد إقناع الدكتور ماهر بالسفر. ربما ينجو.

لكن صقر... كان واقفًا عند حافة السياج، ينظر إلى القبر.

قلبه يُهال عليه الثرى ببطء. وفي تلك اللحظة، اقترب الإمام من صقر.

سأله:

"أنت كنت قريب من مساوئ، صحيح؟"

أومأ صقر.

قال الإمام:

"أريد أن أفهم شيئًا. ماذا حدث؟ ما السر بين مساوئ وربّه؟ لأني لا أظن أن أحدًا يُقبض وهو ساجد... إلا وبينه وبين الله سرّ!"

تنهد صقر، ثم قال بصوتٍ يخرج من أعمق بقعة في روحه:

"ما لا تعرفه، أن مساوئ كان إنسانًا طيبًا... خدومًا... واقفًا دائمًا مع المظلوم. قد يحكم الناس عليه من مظهره، لكنه كان أنقى من كثيرٍ يتلون القرآن. كان مظلومًا، لكنه لم يشتكِ. كان تائهًا، لكنه كان يحاول أن يجد الطريق. كان مكبوتًا، لكنه لم يؤذِ أحدًا. رحمةُ الله وسعت خطاياه... وخُتم له بما يثبت أن الله لا يحتاج إلى إذن الناس حتى يغفر. هو الآن بين يدي رحمة الله. نجا من هذه البلاد... ومن أحكام الناس فيها."

قال الإمام:

"رحمة الله عليه."

وساد الصمت. لكن في ذلك الصمت... كانت هناك نهاية أخرى تُكتب. نهاية رجُلٍ... اسمه (مساوئ)، لكنه مات طاهرًا... كما لم يعِش يومًا.

❊ ❊ ❊

٤٩

انصرف الجميع، وبقي الصمت وحده يمشي على أرصفة عدن.

خلَت الشوارع من حديث مساوئ، وحلّ محله ضجيج السياسة، وبرامج التحليل، وصور الضحايا في معسكر الجلاء. نسيه الناس، كما ينسى العالم ضوء شمعة احترقت بصمت. لكن الإمام... لم ينسَ. عاد إلى مسجده، سحب جسده المُنهك، وما إن أغلق الباب خلفه، حتى خفّ ضجيج الدنيا. خلع عمامته، وأسند ظهره إلى الجدار، المنبر إلى جانبه... قريب، لكن روحه عنه بعيدة.

مرّت أمامه صورة: خمسة أعوامٍ مضت، حين وقف أمام مساوئ ينصحه؛ كان حديثه يحمل الوعيد أكثر مما يحمل الرحمة. لم يكن يومها إمامًا... بل قاضيًا. لم يكن ناصحًا... بل جلادًا. همس لنفسه، دون صوت، وكأن روحه تحاسبه:

"لم يكن عليّ أن أحكم."

"كان عليّ أن أنصت... أن أفتح له باب الله لا أن أغلقه في وجهه."

أنزل رأسه، ودمعة باردة سقطت على طرف لحيته.

فكّر:

"ربما كان مساوئ فتنةً لي، رسالة من السماء اختبرت بها عدلي، وفشلت."

أدار وجهه نحو المنبر، حيث طالما وقف وخطب، لكن الآن، أحسّ أن المنبر أكبر منه، وأثقل.

قال في نفسه:

"يا رب... بالرغم من موقعي، من علمي، أراك تُربيني، تذكّرني أن الرحمة أوسع من أي آية أحفظها، وأني أنا من أحتاج إلى غفرانك أكثر مما احتاجه مساوئ."

رفَعَ يديه إلى السماء، كأن كلماته لا تريد أن تمر عبر الأرض:

"سامحني يا الله...

ما كنتُ لأحكم عليه لو أني أدركت حكمتك.

كنتُ أظنه عاصيًا، ونسيت أني عبدٌ مثله...

نسيت أن بابك لا يُغلق... وأن رحمتك أوسع من قسوتي."

ثم قال، ودموعه تختلط بصوته:

"سامحني، ربّي... لا أريد أن ألقاك وفي قلبي وزر عبدٍ تبتّ عنه، وأنا من أغلق قلبه."

بكى. بكى كما لم يبكِ منذ سنوات.

حتى بلّ دمعه عمامته، وسجدته القديمة.

❊ ❊ ❊

٥٠

بعد ثلاثة أيام، من العزاء، دخلت "جنّات" غرفة مساوئ.
كانت البقعة السوداء ما تزال على الجدار، والرصاصة مغروسة في الإسمنت كأنها لم تفهم بعد ما حدث. دمعة طارفة في عينها اليمنى، وحزن ثقيل لا يُقال. التقطت الورقة التي كتبها في الليلة الأخيرة، قرأتها، وغرقت في دموعها.

***

"جنّات... إذا كنتِ تقرئين هذه الرسالة، فإن كاتبها قد مات، أو بالأصح انتحر. لكن هذه ليست المرة الأولى التي قررتُ فيها أن أموت... لا أعرف كم عدد المرات التي تمنّيت فيها الموت وأنا أبحث عن المغفرة. وقد كُتب عليّ أن أعيش باسم (مساوئ)، الاسم الذي يحمل سلبيات والدي التي انعكست على شخصيتي وحياتي.
أمي الوحيدة التي سمّتني (محاسن)، الاسم الذي رفضه أبي، وأجبرني أن أعيش باسم (مساوئ) الذي عرفتيه دائمًا بصورته المشوّهة، حياته المتشابهة. وعندما تتشابه أيامي، تُخلق أشكال كثيرة من القسوة والألم، والأسوأ من ذلك: الندم.
من ذا يستطيع أن يحمل ضميره كعبء يواجهه بذكريات متشظّية؟
ومن ذا واجه طفولته بما فيها من صدمات... وانتصر؟

من ذا يتحمّل ما أنا عليه؟

رجل تملّكه الندم، وزرع فيه القهر. رجل مُعاقب بذكريات تتغذى من روحه.

ينقل الشك والخوف إلى كل من حوله، وتتأثر ابنته وزوجته، ويُرغمهما على حياة لا تُشبههما.

من ذا يفعل كل ذلك، غيري أنا؟ (مساوئ)... الذي قضيتِ نصف عمركِ تابعةً له، لا رأي لكِ، ولا كيان، سوى أنكِ خادمة لرجل يستمتع بالجلوس مع شياطينه.

تركتكِ دون حب... وفي نفسي أعلم أنني أحببتكِ. لكن بطريقتي المشوّهة، ودائمًا ما كنتُ أستخدم التشويه كحل لأزمتي في التعامل مع كل ما هو جميل في حياتي، ليتحوّل كل من أحبّهم إلى أشخاص معاقين ومشوّهين على طريقتي. مثل تلك البقعة السوداء في ركن الجدار، مدخل كل شياطيني. في غرفة خراب لا تُشبه إلا خرابي الداخلي، ولذلك كنتُ أمنعكِ من دخولها... حتى لا تُصيبكِ لعنة الخراب. أما إذا كنتِ تدخلين إلى الغرفة من بعدي، فأرجو أن تغسلي تلك البقعة السوداء بماءٍ يغلي وملحٍ صخري، حتى لا تعود الغرفة بعدي ملعونة، وتلاحقني ذكرياتي إلى قبري.

بعد ذلك، يكون من الأفضل أن تنتقلوا، أنتِ وعائشة، إلى منزل جديد.

ابدأوا حياة جديدة في مكان أقرب إلى مدرسة نموذجية، من أجل عائشة.

لقد كانت بحوزتي أربع قطع من الأسلحة وصندوق كبير من الرصاص

المتوسط، تركته عند (صقر)، عندما يكون الوقت مناسبًا سوف يتصل بكم.
ولا تنسي أن تحصلي على توكيل براتبي العسكري، صقر أيضًا سوف يتصرف بذلك.
وأخيرًا، أتمنى أن تسامحيني... ولا تنسي أن تخبري عائشة أن والدها كان اسمه (محاسن)... وأنه يتمنى لها حياة سعيدة... وداعًا... (مساوئ)"

❊ ❊ ❊

٥١

تذكرت كل شيء:

الليل... القرار... والسجود الأخير.

تذكرت أيضًا انفجار معسكر الجلاء، وقالت في سرّها:

"كان قدَره أن يموت...

لو لم ينتحر، ربما قُتل في يوم العرض.

لكن... قُدر له أن يموت ساجدًا."

دخلت عائشة راكضة، وفي يدها ورقة:

"ماما! ماما! شُوفي ايش رسمت!"

مسحت جنّات دموعها، وأخذت الورقة بلطف:

"أيش رسمتِ، حبيبتي؟"

كانت مرسومة بقلم رصاص:

جسد بلا رأس، ممدد على الأرض، ورجل عسكري يقف، رافعًا رأسه، يطلق النار من مسدسه نحو الجسد الساقط.

سألت جنّات، بصوت مضطرب:

"أيش تعني هذه الرسمة؟"

أخذت عائشة الورقة مجددًا، وبدأت تشرح بفخر:

"هذا بابا، والرجل اللي على الأرض هو الشيطان... بابا انتصر على الشيطان."

أمسكت جنّات الورقة مرة أخرى، ونظرت إلى الجسد المرسوم بلا رأس، ثم إلى الجدار...

حيث تشكلت ملامح غريبة من شقوق الإسمنت.

عينان، وجهٌ غامض، يتطابق مع ما في الورقة.

كان المشهد يقول شيئًا... لكنها لم تعرف ما هو.

❊ ❊ ❊

٥٢

رنّ الهاتف في الغرفة.

رنينه بدا خافتًا، كأن الهاتف ذاته يهاب أن يوقظ جرحًا. رفعت جنّات السماعة، وكان الصوت في الطرف الآخر ممزوجًا بضجيج الريح وصفير السيارات.

قال صقر، بصوته المعروف، لكن فيه نبرة لم تعهدها:

"أنا في الطريق إليكم... معي بعض الأغراض بتنفعكم."

جنّات ردت بحذر:

"ليش كلفت على نفسك، صقر؟"

قال، وكأنه لا يريد أن يطيل:

"ما كلفت... أنا قريب من البيت."

أغلقت السماعة، ووقفت لحظة في مكانها، تفكّر. ثم التفتت إلى عائشة، التي كانت تمسك الورقة بإحكام. الورقة التي كتبها مساوئ في ليلته الأخيرة، حبرها مختلط بالهذيان، والحقيقة، والخذلان.

فتحت عائشة الباب، فوجدت صقر قد ترك بعض الأغراض على العتبة، دون أن يطرق، كما يفعل من يعرف تمامًا أن الطرق ثقيل على الأبواب المتعففة.

كان هناك كيس بلاستيكي كبير، مليء بالمواد الأساسية: سكر، رز، زيت، أكياس شاي، علبة جبن، كيس آخر فيه منظفات ومعجون أسنان وحفنة من صابون (لوكس) البرتقالي، تفوح منه رائحة الياسمين.

خرجت عائشة بخطى خفيفة، مدّت الورقة إلى صقر. فتح باب السيارة، جلس، أغلق النوافذ، وشغّل التكييف.

بدا أن الهواء نفسه يعاني من ضيقٍ لا يُفسَّر.

ثم... قرأ.

قرأ الورقة مرة، ثم ثانية، وعيناه تتقاطعان مع الكلمات كما لو أنها طعنات مكتوبة.

"لقد كانت بحوزتي أربع قطع من الأسلحة وصندوق ضخم من الرصاص المتوسط، تركته عند صقر، عندما يكون الوقت مناسبًا سوف يتصل بكم..."

سقطت دمعة ثقيلة على حافة الورقة. كانت تلك أول دمعة تسقط منه منذ عشرين عامًا. ظلّ ينظر إلى الاسم.

"يا مساوئ... يا صاحبي."

ثم فجأة...

صوتٌ في المقعد المجاور:

"أول مرة أشوفك تبكي."

رفع صقر رأسه، فزعًا.

كان هو.

مساوئ. بملابسه القديمة. الابتسامة المشوشة نفسها، العينان ذاتهما اللتان تعرفان الحزن دون أن تشرحاه.

"أنت؟ مستحيل."

قال مساوئ بنبرة هادئة، كأن الموت صقل روحه:

"أيش الذي جعلك تساعدني؟ توقف معي دائمًا؟"

أغمض صقر عينيه لحظة، ثم فتحهما وهو ينظر إلى الأمام:

"تشتي الحقيقة... كنت أغار منك... من زمان جدًا."

مساوئ نظر إليه، دون مقاطعة.

تابع صقر:

"لما كنت صغير... أبيع (باغة) بملابس قذرة، عند مدخل الطويلة. وكان أبوك يجي يشتري مني، وأنت معاه. كنت أحسدك. كنت تضحك، تلبس نظيف، وأنا... لا أب، ولا أم، ولا شي."

صوته ارتعش.

"رَبَيت في الأزقّة. تبناني صياد طيب، مات بعد سنتين. وبعدها اشتغلت مع ناس قذرين. أحدهم حاول يتحرش بي... جرحت رجله بزجاجة. كنت طفل. لكن تلك الليلة... كبرت عشرين سنة."

صمت.

ثم أكمل:

"كنت أحاول أعيش... اشتغلت في البنشر، تحمّلت الإهانات. بس

كل ما كنت أجلس لحالي... تنهار الدنيا فوقي. كنت كل ما تذكرته، يمسك بذراعي، وكيف حاول يخلع سروالي، أحس إني مكسور... مكسور بطريقة ما يعرفها حد. حتى بعد ما تعسكرت... حتى وأنا صرت قويّ... كان داخلي ينهار."

أخذ نفسًا عميقًا:

"أول مرة شفتك تحاول تسرق، في المقهى... حزنت. قلت يمكن هذه فرصتي أكون شي حقيقي لأحد. يمكن أكون السند اللي أنا ما لقيته."

ابتسم بتعب:

"بس أنت، يا مساوئ... صرت أكثر من صديق. صرت وجهي الثاني."

لم يردّ مساوئ.

فقط نظر إليه، تلك النظرة التي لا تحتاج إلى كلمات.

أراد صقر أن يلمسه، أن يتأكّد من أن موته كان حلمًا.

لكنه لم يكن هناك.

فقط المقعد... فارغ.

ورائحة الورق المحترق... كأنها تشهد أنه كان هنا.

ظلّ صقر في مكانه، لا صوت إلا خرير المكيّف، حتى أضاءت شاشة الراديو على أغنية مصرية قديمة:

"رجّعوني عيونك لأيامي اللي راحوا..."

همس:

"بس أنا ما عاد أبا أرجع..."

وانطلقت السيارة في طريقٍ طويل. طريق يعرفه وحده.

❊ ❊ ❊

٥٣

بعد مرور سنوات...

كبرت عائشة.

لم تعد تلك الطفلة التي ترسم والدها وتنتظر أن يبتسم.

صـــارت امرأة تعرف كيف تحب... دون أن تنكســر، وكيف تمشــي على الرماد... دون أن تحترق.

تزوّجت من طبيبٍ شــاب، رأت فيه الحنان الذي غاب عنها طويلًا، ورزقها الله طفلًا... ضــمّته إلى صــدرها في الليلة الأولى، وقالت لزوجها، وهي تنظر في عينيه:

"ما رأيك نسميه... محاسن؟"

ابتسم الزوج، دون أن يسأل.

لأنه فهم. ولأن بعض الأســماء لا تُنســى، تمامًا كما لا تنســى القلوب من علّمها الصبر.

ســمّته محاســن... لأنها تؤمن أن الاســم، إذا حُمل بالحب، فإنه لا يُورّث الألم... بل يغسله.

كبر محاسـن، وعندما كبر بما يكفي، قالت له والدته يومًا، وهي تمسـح على شعره:

"كان جدّك رجلًا معذّبًا... لكنه انتصر في لحظته الأخيرة."

ثم نظرت من النافذة، نحو ضوء الغروب، وهمست في قلبها:

"بعض القصائد لا تنتهي بموت شاعرها."

❊ ❊ ❊

طلقة سبقت لحظة الانتحار

بعض الطلقات تصدر من كلمة قاسية، أو صمت طويل، أو طفولة أثقلت بالخوف حتى كبرت وهي لا تعرف معنى الحب. في هذه الرواية يقودنا سند فهد إلى أعماق نفسٍ أنهكتها الحروب والهزائم والذكريات. تتداخل الحقيقة بالهذيان، والواقع بالكوابيس، ويصبح الضمير خصمًا لا يكف عن المطاردة. تبدو مدينة عدن شاهدة على الخراب بقدر ما تبشر بالأمل، ويخوض بطل الرواية معركة الإنسان مع ماضيه، ومع ذنبٍ لا يسمح له بالنجاة. "طلقة سبقت لحظة الانتحار" ليست رواية جريمة، بل رواية عن الجروح التي تسبق الجريمة، وعن الآباء الذين يورثون أبناءهم أوجاعهم دون أن يشعروا، وعن الإنسان حين يتحول إلى سجين لذاكرته. رحلة مؤلمة في دهاليز النفس البشرية، تطرح سؤالًا يبقى صداه حتى الصفحة الأخيرة: هل يستطيع المحروم من الحب أن يمنحه لغيره؟



سند فهد: روائي. مواليد عدن، 24 أغسطس 1994. له رواية "نضال (الأجنحة المفرودة)". وروايته "طلقة سبقت لحظة الانتحار" من الروايات الفائزة بجائزة السرد اليمني- حَزاوي في دورتها الرابعة 2025.

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني